قصص من أمريكا اللاتينية

جمع وترجمة ماهر البطوطي

قصص من أمريكا اللاتينية

جمع وترجمة
ماهر البطوطي

هنداوي

قصص من أمريكا اللاتينية

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٩٤ ٢

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإسبانية في تواريخ متعددة.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ ماهر البطوطي.

المحتويات

تقديم	٧
البوابة رقم ١٢	١١
الياقوتة	١٩
ملاريا	٢٥
حياتي مع الموجة	٣١
فيما وراء الحياة والموت	٣٧
المحوَلجي	٤٥
الأحد، الأحد	٥٣
الابن والأم	٧١
قصبات البوص المجوف	٧٩
كسوف الشمس	٨٣
عدالة هندية	٨٧
السجين	٩٣
ليلة الكروان	١٠١
النزيل	١٠٥

تقديم

شهد أدب أمريكا اللاتينية رواجًا واسع النطاق منذ عقد الستينيات من القرن العشرين، وحتى يومنا هذا، وقد نجح هذا الرواج في إخراج ذلك الأدب من نطاقه اللغوي والجغرافي، فأصبحت كتبه تُترجم إلى اللغات الرئيسية في العالم أجمع، بعد وقت قصير من صدورها بلغتها الأصلية. وقد استبان هذا أساسًا في المجال القصصي؛ حيث نجحت أسماء مثل بورخيس وماركيز وكورتاثار إيزابيل ألليندي وفارجاس يوسا وغيرهم في الذيوع والانتشار. وقد طال ذلك الرواج اللغة العربية خاصة في الأسماء المشهورة، فنحن نقرأ روايات ماركيز وألليندي في الوقت نفسه الذي تصدر فيه باللغات الأخرى تقريبًا.

وقد ساعد ذلك الرواج على أن يحتل ذلك الأدب مكانة عالية بين الآداب العالمية، وأدى إلى حصول عدد من أدباء أمريكا اللاتينية على جائزة نوبل للآداب، وهم جبرييلا مسترال وميجيل أنخل آستورياس وبابلو نيرودا وغارسيا ماركيز وأوكتافيو باز. وإيزابيل ألليندي هي المرشحة التالية من أبناء أمريكا اللاتينية لنيل تلك الجائزة.

وقد بدأ الأدب في أمريكا الإسبانية — وهي دول أمريكا اللاتينية عدا البرازيل التي كانت تحت حكم البرتغال وتتحدث البرتغالية — في كنَف المستعمرين الإسبان الذين جاءوا إلى تلك البقاع بلغتهم وآدابهم. وكانت الكتب الأولى في تلك القارة من وضع الإسبان الذين توطَّنوا هناك، وعلى رأسها مذكرات كريستوفر كولمبس نفسه، ثم مذكرات أو أخبار الغزاة الإسبان المشهورين مثل كورتين وبيسارو. ثم كان من الطبيعي أن يكون أول من ألف الكتب في هذه القارة هم أحفاد المستوطنين الإسبان الذين بدأ يتكوَّن منهم شعب أمريكا اللاتينية المتحدِّث بالإسبانية. وكانت معظم هذه المؤلفات تاريخية تقصُّ أخبار وتاريخ البلاد التي يعيشون فيها، وآثار الحضارات السابقة والأساطير القديمة، علاوة على الكتب الدينية.

ولم يبدأ أدب أمريكا اللاتينية في اتِّخاذ شكله الخاص إلا بعد استقلال تلك البلاد عن إسبانيا والبرتغال. فبعد أن حررت أمريكا الإسبانية نفسها من الحكم الإسباني بعد عام ١٨١٠م، كان عليها أن تحلَّ مشكلة كبرى واجهتها، وهي كيفية المحافظة على الوحدة الثقافية لتلك البلاد. وكان ذلك صعبًا بالنظر إلى الانقسامات السياسية والمنازعات المحلية والثورات والحروب الأهلية التي حدثت بعد ذلك وأدَّت إلى ظهور دول عديدة بدلًا من الأقاليم المتحدة التي كانت تحكمها إسبانيا؛ إلا أن الكتَّاب والمفكرين اعتمدوا على اللغة الواحدة التي تجمع بين هذا الشعب؛ كيما يكثفوا الوحدة الثقافية في مواجهة التفتُّت والانقسام السياسيين.

وكانت أمريكا اللاتينية وقت حروب الاستقلال ما زالت تتفاعل وتتكيف مع حركات التنوير التي انتقلت إليها من أوروبا. وطوال القرن التاسع عشر، كان أدب أمريكا اللاتينية يتأثر في معظمه بالاتجاهات الأوروبية في الفن والأدب، في الوقت نفسه الذي يحاول فيه أن يقدِّم موضوعات مستمدة من واقع الأوطان الأصلية. وقد ساد الاتجاه النيوكلاسيكي الأدب حتى العشرينيات من القرن التاسع عشر، وبعدها، في الثلاثينيات، بدأت تطغى على ذلك الأدب النزعة الرومانتيكية التي استقرَّت فيه عدة عقود، حتى بعد أن فقدَت حيويتها في أوروبا. وقد تأثَّر أدباء تلك الفترة أساسًا بكتابات فكتور هوجو وألفرد دي موسيه، وبايرون وولتر سكوت ووليام بليك.

أما ما لفت الأنظار إلى أدب أمريكا اللاتينية، وجعل منه مصدر تأثير، فهي حركة الحداثة، التي رفع لواءها أديب نيكاراجوا روبين داريو. وقد سبق داريو عدد من كتاب اللغة الإسبانية في التعرف على تيار الحداثة؛ إلا أنه هو الذي حدد ملامح الحركة ودعا إليها في كل ما يكتب، وروج لها في الصحف الأدبية التي أصدرها. وقد اجتمع حوله وتأثَّر به الكثير من أبناء القارة، بالإضافة إلى أدباء مشهورين في إسبانيا ذاتها.

وإلى جانب الحداثة، ظهر في أدب أمريكا اللاتينية جميع التيارات الأدبية التي عرفتها أوروبا في ذلك الوقت، وتعايشت فيما بينها. فقد وجدت الواقعية الطبيعية مجالًا بين عدد من الروائيين وكتَّاب القصص القصيرة في أمريكا اللاتينية، وتأثَّروا في ذلك بما كتب موباسان وإميل زولا وتشارلز ديكنز وتشيكوف وجوركي. وبالمثل، عرفت تيارات الرمزية والتعبيرية والسيريالية والوجودية طرقها في أدب أمريكا اللاتينية.

وتعرِض المجموعة التي بين يدَي القارئ لنماذجَ متعددة من فن القصة القصيرة في أمريكا اللاتينية؛ ففيها نموذج الاعتماد على الحكايات والأساطير الشرقية التي برع فيها

الحداثي روبين داريو الذي ذاعت شهرته في أوائل القرن العشرين. وفيها، على الجانب الآخر، أمثلة عديدة على الإسهام الذي نشر به قصَّاصو أمريكا اللاتينية نهج الواقعية السحرية في صورته المحدَثة التي نجدها ما تزال نابضة إلى الآن في بداية القرن الحادي والعشرين. ونقول صورته المحدَثة ليقيننا أن القصص العربي، ممثلًا في ألف ليلة وليلة وغيرها من الحكايات الشعبية التي ذاعت في أوروبا في العصور الوسطى عن طريق إسبانيا وصقلية، هو الأب الشرعي لذلك النهج، وهو أيضًا المصدر الحقيقي لكل أنواع القصص والروايات التي يُرجِعها النقاد عادةً إلى الروايات الإنجليزية الصادرة في القرن الثامن عشر ويؤرخون بها «نشأة الرواية». فنحن نجد في ألف ليلة مثلًا جميع الأساليب القصصية التي كتب عنها منظرو الفن القصصي بدءًا من ا.م. فورستر في «معالم الرواية» حتى ديفيد لودج في «الفن الروائي»، نجد فيها الشخصية الثابتة والمتطورة، وجميع أنواع الحدَث، والتشويق، والإثارة، وقصص الخيال العلمي، والسخرية، والتورية، والتناص، وما إلى ذلك من الأساليب القصصية واللغوية.

وبين الحداثة المبكرة والواقعية السحرية، تضمُّ المجموعة قصصًا تصوِّر الواقعية الاجتماعية، على النحو الذي كان يكتب به بلزاك وزولا وتشارلز ديكنز. وتصوِّر قصة «البوابة رقم ١٢» محنة عمال المناجم ومشكلة تشغيل الأطفال، على نحوٍ درامي سيكولوجي يقترب بها من النزعة الطبيعية. أما قصة «السجين» فهي تتعلَّق بقسوة السلطة في وجه أي ثائر عليها، وهو نمط شائع في دول أمريكا اللاتينية بصورة تجعل من هذه القصة تعبيرًا واقعيًّا مأساويًّا عن الحياة السياسية والاجتماعية في كثير من تلك البلدان. وينطبق الشيء نفسه على العلاقة بين البِيض والسكان الأصليين من هنود أمريكا اللاتينية، وتُصوِّرها قصة «عدالة هندية» التي تجسِّد صبرَ هؤلاء الهنود على الظلم ومحاولاتهم علاجه بالحسنى، حتى إذا فاض بهم الكيل لجئوا إلى حل مشاكلهم متكاتفين متعاونين، حتى وإن كان ذلك الحل دمويًّا قاسيًا.

وقد أطلقنا على هذه المجموعة اسم «قصص من أمريكا اللاتينية» من باب التعميم الحميد؛ لأنها كلها قصصٌ مترجمة عن اللغة الإسبانية، وهي كما ذكرنا سابقًا لغة كل بلاد أمريكا اللاتينية ما عدا البرازيل التي تتحدث البرتغالية. وقد اقتصرنا على الترجمة من الإسبانية حرصًا على أن تكون الترجمة من اللغة الأصلية وليست عبر لغة وسيطة.

البوابة رقم ١٢

تأليف: بلدوميرو ليلو
(شيلي)

عاش بلدوميرو ليلو صباه في المنطقة الجنوبية من شيلي، التي تشتهر بمناجم الفحم. ورغم أنه لم يكمل تعليمه الثانوي؛ فقد اتجه إلى ميدان الأدب، فقرأ كلاسيكيات الأدب الإسباني وتأثَّر بها وعلى رأسها رواية سرفانتس دون كيخوته. ثم قرأ بعد ذلك زولا ودستويفسكي، واستبان أثرهما في نهج الطبيعية الذي ساد في قصصه. وقد استقر ليلو بعد ذلك في العاصمة سنتياجو حيث أخرج مجموعات متتابعة من القصص القصيرة. ومن العجيب أنه، مثله مثل بعض شخصيات قصصه، قد تُوفي بداء السل.

* * *

تعلَّق بابلو، بدافع غريزي، بساقَي أبيه. وطنَّت أذناه وانساحت الأرض تحت قدمَيه مما جعله يشعر بإحساس حزن غريب. وأحس كأن أحدًا يدفع به إلى ذلك الثقب الأسود الذي رآه وهو يدخل القفص. وتطلَّعت عيناه الكبيرتان المستديرتان في خوفٍ إلى جدران الممر المظلم الذي كانوا ينحدرون فيه بسرعةٍ تصيب المرء بالدوار. وفي هذا الهبوط الصامت، دونما صوت عدا نقط المياه وهي تسقط على السطح الحديدي، بدت أضواء المصابيح على وشك الانطفاء، وعلى أشعتها الواهنة كان يمكن تمييز سلسلة طويلة لا نهاية لها من الظلال السوداء التي تطلُع كالسهام المارقة.

وبعد دقيقة، تناقصت السرعة بغتة، وشعر بقدمَيه تقفان على تربة أكثر صلابة في تلك الأرض السائخة، وتوقف القفص الحديدي الثقيل على عتبة الدهليز بضجة من السلاسل والمفصلات.

وتناول الرجل العجوز يد الصبي الصغير ودخلا معًا النفق المظلم. كانا من أوائل من وصلوا إلى هناك. لم يكن العمل في المنجم قد بدأ بعد. ولم يكن يري من الدهليز، الذي لم يكن يسمح سوى للأطفال بالوقوف منتصبي القامة، سوى جزءٍ من سطحه، تتقاطع عليه عروق خشب غليظة. وكانت الجدران الجانبية لا تَبين في الظلمة العميقة التي ملأت مكان الحفر الكئيبَ الرحيب.

وعلى بُعد أربعين ياردة من مكان الحفر، توقفَا أمام نوع من المغارات التي أعدوها في الصخور. كان يتدلى من السقف المصدوع المغطى بالسناج فانوسٌ من الصفيح خلع نوره الواهن على الحجرة مظهرَ السرداب، وقد تسربل بالسواد وامتلأ بالظلال. وفي مؤخرة الحجرة، جلس رجل هرِم صغير الحجم خلف منضدة يكتب في دفتر هائل الحجم. وكانت حُلته السوداء تتناقض تناقضًا واضحًا مع وجهه الشاحب المليء بالتجاعيد. وعند سماعه صوت خطوات أقدامنا، رفع رأسه وتطلَّع متسائلًا نحو عامل المنجم العجوز الذي تقدم في وجلٍ وقال بصوت مستسلم يتسم بالاحترام: لقد أحضرت الصبي يا سيدي.

وأحاطت عينَا رئيس العمال جسد الصبي الصغير الضعيف بلمحة واحدة. وقد تركت أعضاؤه الضعيفة والبراءة الصبيانية لوجهه الأسمر بعينَيه اللامعتين المفتوحتين على اتساعهما كعينَي حيوان صغير مذعور، انطباعًا سيئًا لدى رئيس العمال. ورغم أن مرأى الكثير من الشقاء يوميًّا كان قد كسا فؤاده صلابة، فقد أحس بوخزة شفقةٍ لدى رؤية هذا الصبي الصغير الذي انتُزع من ألعابه الصبيانية وحُكم عليه، مثله مثل الكثيرين من أمثاله، بالضياع في بؤس تلك الدهاليز الرطبة إلى جوار أبواب التهوية. ورقَّت خطوط وجهه القاسية ووجَّه الكلام بقسوة مفتعلة إلى العجوز الذي انتابه القلق لتفحُّص الرئيس لابنه على هذا النحو، فتطلَّع في قلق انتظارًا لرد فعله: بحق السماء يا رجل، إن هذا الصبي ما زال ضعيفًا على العمل. أهو ابنك؟

– أجل يا سيدي.

– إنه صغير جدًّا. ينبغي لك أن تشفق عليه من أن يُدفن هنا. عليك أن تبعث به إلى المدرسة لبعض الوقت.

فتلعثم العجوز قائلًا بصوت فيه نبرة التوسل: ولكن، يا سيدي، إننا ستة في البيت وواحد منا فقط يعمل. لقد بلغ بابلو الثامنة من عمره بالفعل، ويجب عليه أن يأكل بعرق

جبينه. وبوصفه ابنًا لعامل منجم، عليه أن يسير في خطى أجداده الذين لم يعرفوا مدرسة عدا المنجم.

وأغرقَت نوبة مفاجئة من السعال صوتَه المرتعش، بَيدَ أن عينَيه النديَّتين كانتا تسترحمان بإلحاحٍ دعا رئيس العمال، الذي أقنعه ذلك النداء الصامت، إلى رفع صفارة إلى فمه. ودوَّى الصفير عبر الدهليز المهجور. وسمع صوت خطوات مسرعة وظهر شبح على عتبة الباب.

وهتف الرجل الضئيل وهو يشير إلى ابن عامل المنجم: خوان، خذ هذا الصبي إلى البوابة رقم ١٢. إنه سوف يحل محل خوسيه، ابن الحمال، الذي دهسته العربة أمس.

ثم تحوَّل إلى العامل العجوز الذي كان يتهيأ لإزجاء الشكر إليه، وقال بصرامة: لقد لاحظت أنك في الأسبوع الأخير لم تنجز الحد الأدنى المقرر لكل حفَّار وهو مَلء خمس عربات. لا تنسَ أنه إذا تكرر الأمر ثانية فسوف تُفصل ويحل مكانك رجل أكثر نشاطًا.

ثم صرف الجميع بإشارة حادة من يده اليمنى.

وسار الثلاثة في صمت، وتلاشى صوت وقع أقدامهم تدريجيًّا وهم يغيبون في النفق المظلم. وساروا بين قضيبَين حاولوا تفادي العوارض التي تربط بينهما، والتي انغرست في الأرض الموحلة، عن طريق تقصير أو تطويل خطواتهم. وقد استرشدوا بالخوازيق الحديدية التي كانت تربط العوارض بالقضبان. وقد تقدَّمهم المرشد الذي كان لا يزال فتيًّا، يتبعه العامل العجوز وقد انتابته الهموم فسقط رأسه على صدره، يسحب ابنه بابلو من يده. كان تحذير رئيس العمال قد ملأ العامل العجوز باليأس. كان واضحًا للجميع منذ فترة أن الوهن يعتريه، فكان يدنو مع كل يوم من الحد الأدنى الرهيب الذي إذا بلغه عامل من العمال القدامى أحاله إلى قطعةٍ من النفاية في المنجم.

كان يعمل بلا أمل من الفجر إلى المساء، أربع عشرة ساعة طويلة، يتثنَّى ويتقلب كالأفعى في دهليز ضيق، ويهاجم الفحم بلا هوادة، حافرًا في العروق الفحمية التي لا تنتهي، والتي حفر فيها الكثير من الأجيال من الرجال البؤساء من أمثاله بلا توقُّف في أحشاء الأرض.

بَيدَ أن ذلك النضال العنيد المستمر المتشبث سرعان ما يحيل أقوى الشباب إلى شيوخ متهدِّمين. هناك في ذلك الثقب المظلم الرطب الضيق، تتقوس ظهورهم وتضعف عضلاتهم. وكالمهر صعب المراس الذي يرتجف لمرأى السَّوط، كان هؤلاء العمال الهَرِمون يشعرون بجلودهم ترتعش وهم يعودون إلى الحفر كل يوم. ولكن الجوع كان هو الحافز الأقوى

والأشد فعالية من السَّوط أو المهماز. ولذلك كانوا يواصلون مهامَّهم الشاقة وكانت عروق الفحم تتآكل في الآلاف من المواضع بفعل النخر اليومي فيها فتنهار قطعة قطعة، مثلما يستسلم الشاطئ الرملي لموجات البحر.

وتوقف المرشد، فجذب الرجل العجوز من تأملاته الحزينة. كانت هناك بوابة تسدُّ طريقهم في ذلك الاتجاه. وعلى الأرض، كان ثمة شبح صغير مُقعٍ، يستند إلى الجدار ولا يكاد يَبين في النور الخافت. كان الشبح صبيًّا في العاشرة من عمره يُقعِي في فجوة الحائط.

ولم يكن بدا على الصبي — ومرفقاه يرقدان على ركبتيه، ووجهه الشاحب بين يديه الهزيلتين، صامت بلا حراك — أنه قد رأى العمال حين تخطَّوا العتبة ثم تركوه مرة أخرى غارقًا في الظلمة. كانت عيناه المفتوحتان الخاليتان من أي تعبير مثبتتين في عنادٍ إلى أعلى، مستغرقتَين فيما يبدو في تأمُّل مشهد خيالي كان، كالسراب في الصحراء، يجتذب حدقتَيه الظامئتين للنور الساطع والرطبتين من الحنين إلى ضوء النهار البعيد. كان مسئولًا عن إدارة تلك البوابة، فيقضي ساعات سجنه التي لا تنقضي مغمورًا في غيبوبة حزينة، يزيد منها ذلك الحجر الضريحي الهائل الذي يُسحَق فيه إلى الأبد كل حركات الطفولة القلقة النبيلة. إن آلام هؤلاء الأطفال هو ما يُخلِّف في نفوس من يعرفونهم مرارة لا حدود لها وشعورًا بالإدانة الحادة للأنانية والجبن الإنسانيين.

وبعد أن سار الرجلان والصبي في ممر ضيق طويل، وصلوا آخر الأمر إلى دهليز النقل الذي كانت تتساقط من سقفه قطرات المياه على نحو مستمر. ومن وقت لآخر، كانت تُسمع ضوضاء قصيَّة مكتومة كما لو أن مطرقة هائلة الحجم تنقر سطح الأرض فوق رءوسهم. ورغم أن بابلو لم يستطع تحديد كُنهها، فقد كانت تلك الضوضاء ناتجة عن اصطدام الأمواج على صخور الشاطئ. وساروا قليلًا بعد ذلك إلى أن وجدوا أنفسهم أخيرًا أمام البوابة رقم ١٢.

قال المرشد وهو يتوقَّف أمام بوابة تُفتح وتُغلق من إطار خشبي مثبَّت في الصخرة: «ها هي». كانت الظلال كثيفة إلى حدٍّ أن وهجَ مصابيحهم الأحمر لم يكَد يُظهر الحاجز الماثل أمامهم.

قام بابلو، الذي عجز عن إدراك سبب توقُّفهم، بالتطلع في صمت إلى الرجلين اللذين بدآ، بعد تبادل قصير للكلمات بينهما، يشرحان له ببهجة وشوق كيف يدير البوابة. واتَّبع الصبي تعليماتهما ففتحها وأغلقها عدة مرات، مما أزال مخاوف أبيه من عدم تملُّكه ما يلزم من القوة لمثل ذلك العمل.

وأظهر الرجل العجوز استحسانه بأن مسح بيده الخشنة على رأس ابنه البكر الأشعث الذي لم يُبدِ بعدُ أي تعب أو خوف. كان خيال الصبي، وقد أثر فيه ذلك المشهد الجديد الغريب، قد انتابته الحيرة والاضطراب. كان يبدو له من حين لآخر أنه في حجرة مظلمة وأنه ينتظر بين لحظة وأخرى أن تنفتح نافذة تسمح بدخول أشعة الشمس الباهرة. ورغم أن قلبه الصغير غير المجرِّب لم يَعُد يعاني من الرهبة التي بذرها فيه نزوله إلى المنجم، فقد ثارت شكوكه الآن بعلامات الود غير الطبيعية التي أبداها أبوه نحوه. وأُوقِد ضوء في نهاية الدهليز، ثم انبعث صرير عجلات على القضبان، وجلجل صوت وقع حوافرَ ثقيلة سريعة على الأرض.

وصاح الرجلان كلاهما: إنها العربة!

وقال الأب: أسرع يا بابلو. فلنرَ إن كنت تستطيع القيام بعملك.

وكوَّر بابلو قبضتَيه، ودفع جسده الصغير في البوابة إلى أن لامست الجدار. وما إن فعل ذلك حتى اندفع منها حصان أسود لاهث الأنفاس مغطى بالعرق، يجرُّ عربة ثقيلة مليئة بالفحم.

وتبادل عاملا المنجم نظرة ارتياح. لقد أصبح بابلو الآن صبيًّا متمرسًا بالبوابات. وانحنى الرجل العجوز عليه وأخبره بنبرات مادحة أنه قد أصبح صبيًّا كبيرًا ولم يَعُد كالصغار الذين يتعلقون بأذيال أمهاتهم. إنه الآن رجل شجاع، عامل حقيقي، رفيق عمل يقوم به الجميع بهذه الصفة. وبكلمات قليلة جعله يفهم أن عليه أن يتركه وحده. يجب ألا يشعر بالخوف. هناك الكثيرون من الصِّبية مثله في المنجم يقومون بنفس العمل. وهو قريب منه وسيحضُر لرؤيته من حين لآخر. وحين ينتهي عمل اليوم، سيعودان إلى المنزل معًا.

وأنصت بابلو لما كان أبوه يقوله بخوف متزايد. وكان جوابه الوحيد هو أن قبض على ثياب أبيه بكلتا يديه. فحتى ذلك الوقت، لم يكن قد وعَى تمامًا ما يريدون منه. ولكن التحوُّل الذي طرأ دونما توقُّع على هذه النزهة البريئة مع أبيه قد ملأه برهبة مخيفة. لا بد أن يخرج من هذا المكان. إنه يريد أن يرى أمه وإخوته وأخواته، أن يكون في الخارج تحت نور الشمس مرة أخرى. وكان كل أثر إقناع أبيه له أن صاح: فلنعد إلى البيت!

ولم تفلِح معه الوعود أو التهديدات. كان ينوح في خوف متزايد لا يطاق: فلنَعُد إلى البيت يا بابا!

وفي البداية، بدا على وجه عامل المنجم العجوز الضيق العارم، ولكنه حين رأى تلكما العينين الموحشتَين المسترحمتَين المليئتَين بالدموع تتطلعان إليه، تبدَّل غضبه إلى شفقة لا

حدود لها؛ فلكم كان الصبي صغيرًا ضعيفًا! وغمر كيانه فجأة الحب الأبوي الذي كان قد كتمه طويلًا في نفسه.

وتراءت أمامه فجأة ذكرى حياته هو، أربعون عامًا من العمل والشقاء. وكان عليه أن يعترف بأسفٍ أن كل ما تبقَّى من ذلك الجهد العظيم هو جسد مستنفَد سرعان ما سيُلقى به خارج المنجم ويُطرح في كومة المهملات. وقد جعلته فكرة أن هذا الطفل ينتظره نفس المصير في المنجم، يرغب رغبة محمومة أن يمنع هذه الضحية من هذا الوحش الذي لا يشبع، الذي يجرُّ أطفالًا صغارًا من حجور أمهاتهم كيما يُحيلهم إلى مساكين تتلقَّى ظهورهم أسواط سادتهم القاسية وهدهدات الصخور في السراديب الضيقة الملتوية بنفس الدرجة من الصبر.

بَيدَ أن جذوة التمرد في نفسه سرعان ما أطفأتها ذكرى بيته الفقير والمخلوقات الجائعة العارية التي كان هو مصدر رزقها الوحيد. لقد علَّمته التجربة أن حلمه حلمٌ أحمق. ذلك أن المنجم لم يكن ليُحرر أي شخص يقع بين براثنه. والأبناء يتبعون الآباء، كالمفصلات الجديدة التي تحل محل المفصلات القديمة المكسورة هناك في قاع المنجم، ولا يتوقَّف صعود وهبوط المد البشري أبدًا في الأنفاق العميقة. كان الصغار يتنفسون هواء المنجم المسموم فيشبُّون مصابين بداء الكُساح، ويغلب عليهم الضعف والشحوب. ولكن كان عليهم التسليم بالأمر، فقد خُلِقوا لذلك العمل.

وعلى هذا، قام الرجل العجوز، بحركة حازمة، بحلِّ حبل رفيع قوي من وسطه، وبالرغم من كفاح الطفل واحتجاجه، ربطه في وسط بابلو وربط طرفه الآخر في مزلاج حديدي ضخم مثبَّت في الجدار. وقد أبانت قِطع من الحبال القديمة المعلقة في ذلك القضيب المعدني أنه قد سبق استخدامه في نفس الغرض من قبل.

وغلب الفزع الشديد الطفل فأطلق صرخات حادة من الألم الرهيب، وكان عليهم أن يجروه بالقوة من بين ساقي أبيه، اللتين تشبث بهما بكل قوته. وملأت توسلاته وصرخاته النفق. وكان حظ الضحية الصغيرة أسوأ من حظ ابن إبراهيم؛ إذ لم يسمع أي صوت حنون يثني يد أبيه من التوجه ضد فلذة كبده. وهكذا كان ظلم الإنسان للإنسان.

كان بكاؤه الموجه للرجل العجوز يقطع نياط القلب حتى إن الأب المسكين شعر ثانية بالتخاذل. بَيدَ أن ذلك لم يستمر سوى لحظات، فغطى أذنيه حتى لا يسمع الصراخ الذي يقطِّع القلب، أسرع بخطواته كيما يخرج من ذلك المكان. وقبل أن يغادر الدهليز، توقف لحظة وسمع صوتًا ضعيفًا يبكي على البعد ويهتف: ماما، ماما.

وعندئذ جرى الأب محمومًا بعيدًا والنحيب اليائس يتبعه، ولم يتوقف إلى أن وصل إلى مكان عروق الفحم. وعند ذلك تحول حزنه إلى غضب جامح، فتناول مقبض مِعوله وهجم على عِرق الفحم في ضراوة وجنون. ودقَّت ضرباته الصخر كحبات البرد الثقيل على الزجاج. ودفن المعول الحديدي نفسه في الكتلة السوداء اللامعة، وفتَّت قطعًا كبيرة من الفحم سقطت أمام قدمي العامل العجوز، بينما غطت سحابة كثيفة من الغبار ضوء مصباحه الواهن. وتطايرت الشظايا الحادة فيما حوله، فأصابت وجهه وعنقه وصدره العاري بالقطوع. وسرت قطرات من الدماء الممزوجة بالعرق الغزير على جسده المبلل الذي كان ينتصب كالوتد في وسط الفجوة المفتوحة. واستمر في ضرباته بعنف السجين الذي يضرب الجدار الذي يحدُّ من حريته، وإنما دون الأمل الذي يهب القوة للسجين الذي يتطلع إلى حياة جديدة مليئة بنور الشمس والهواء والحرية بعد أن ينتهي من ضرباته.

الياقوتة

تأليف: روبين داريو
(نيكاراجوا)

روبين داريو (١٨٦٧–١٩١٦م)
شاعر وقصاص من نيكاراجوا، عمل في السلك الدبلوماسي في بلاده وعاش في باريس فترة طويلة بهذه الصفة. وداريو هو أول من رفع لواء الحداثة في أدب اللغة الإسبانية قاطبة. وقد قدَّم المدرسة الرمزية الفرنسية إلى ذلك الأدب عن طريق ديوانه الأول «أزرق». ويغلب على أعماله الطابع الجمالي الصِّرف. وقد أثرت أعمال داريو تأثيرًا هائلًا في كل أدباء الإسبانية المعاصرين والتالِين له، حتى في إسبانيا ذاتها. وتتسم أعماله بالرومانسية، ويكثُر فيها العنصر الشرقي، وقد تأثَّر به داريو من قصص ألف ليلة وليلة وغيرها من الكتب العربية والفارسية التي تُرجمَت إلى اللغات الأوروبية منذ عصر مبكر.

* * *

– «آه! إذَن فالأمر صحيح! لقد أفلح ذلك العالم الباريسي في أن يستخلص من أعماق أنابيبه المتعرجة، من قنيناته، الكريستال الأرجواني الذي بطَّنتُ به جدران قصري.»

وبعد أن قال ذلك، أخذ الجِني الصغير يروح جيئة وذهابًا من مكان إلى آخر بقفزات قصيرة خلال المغارة العميقة التي يسكن فيها؛ مما جعل لحيته الطويلة والجرس المثبت في طاقيته الزرقاء المدببة في حركة دائمة.

إنها حقيقة واقعة، إن أحد أصدقاء «شفريل» ذي المائة عام، الكيميائي فريمي، قد اكتشف لتوِّه طريقة صنع أحجار الياقوت والصفير.

وواصل الجني مونولوجه وقد انتابه الانفعال والإثارة العميقة، كان جنيًّا واسع العلم ذا طبيعة نشطة: «آه يا علماء القرون الوسطى! يا ألبرتوس ماجنوس، يا أبا رشد، يا رايمون لول! لقد فشلتم جميعكم في رؤية الروعة الباهرة لحجر الفلاسفة. وها هو، دون أن يدرس الصيغ الأرسطية، ودون معرفة بعلوم «الكابالاه» واستحضار الأرواح، ها هو أحد رجال القرن التاسع عشر يخترع في وضح النهار ما نُنتجه نحن في عالمنا الكامن تحت الأرض. الصيغة السحرية! طوال عشرين يومًا، يمزج السيليكون بألومينيوم الرصاص، ويلوِّن المزيج بثاني كرومات البوتاسيوم أو بأوكسيد الكوبالت. إنها مصطلحات تشبه تمامًا لغة شيطانية.»

وتُسمع ضحكات.

ثم يتوقف الجني.

كان «جسم الجريمة» هناك في منتصف المغارة على صخرة ذهبية كبيرة؛ ياقوتة صغيرة تلتمع في رفق، وتُشبه حبةً من حبات الرمان، تحت أشعة الشمس.

ونفخ الجني في بوقٍ كان يحمله في وسطه، وتردد الصدى في طول المغارة وعرضها. وفي لحظات قليلة، سُمعت جلبة وتدافُع جنوني وضجَّة. كان كل الجن قد حضروا.

كانت المغارة رحيبة، وكان يلتمع فيها وهج أبيض غريب. كانت ألوان أحجار العقيق تلتمع في السطح الحجري، مبثوثة، مضفَّرة، متجمعة في مجموعات عديدة، بنور خافت يضيء كل شيء.

وفي وسط هذا الضياء، كان بوسع المرء أن يرى هذا المقام المدهش في أبهى حُلله؛ فعلى الجدران، فوق قطع الفضة والذهب، بين عروق اللازورد، كانت هناك مجموعة ضخمة من الأحجار الثمينة تخلق تصميمات بديعة تشبه النقوش العربية التي في المساجد. وانبجست أقواس قوس قزح من بلَّورات الماسات، رائقة صافية كقطرات المياه. وبالقرب من دلايات الأحجار الكريمة المعلَّقة من السقف، كانت الزمردات تُشع بهاء اخضرارها، وأحجار الصفير في باقاتٍ تتدلى على الجدران، تشبه الأزهار الزرقاء المرتعشة الكبيرة. وكان يُحيط بالمكان صفوف من أحجار التوباز والجمشت المموهة بالذهب، ومن الإفريز المكوَّن من أحجار عين الهرِّ اللبنية اللون، كان ثمة نبع رقيق من المياه يتدفَّق من حين لآخر، وينثال بعذوبة موسيقية في قطرات متناغمة كالألحان الصادرة عن ناي معدني يُصدر أنغامًا في غاية الرقَّة.

كان هناك «باك»، ذلك الوغد الذي تدخَّل في الأمر. كان هو الذي أحضر جسم الجريمة، الياقوتة المزيفة، التي ترقد هناك على الصخرة الذهبية كأنها أذًى وسط كل تلك الروعة الباهرة.

وحين اجتمع كل أفراد الجن معًا، البعض بمطارقهم وبلطاتهم في أيديهم، والآخرون يرتدون طراطيرهم المبهرجة ذات الأطراف المدببة الحمراء والمزركشة بالجواهر، وكلهم يغلب عليهم حب الاستطلاع، قال باك: «لقد طلبتم مني أن أُحضر لكم أحدث أمثلة التزييف البشري ولقد أرضيت رغباتكم.»

وكان رجال الجن جالسين متربعين على الطريقة التركية، يعقصون أطراف شواربهم. وقد أزجوا الشكر إلى باك بإحناءٍ طفيف من رءوسهم، بينما تفحَّص القريبون منه أجنحته الشبيهة بأجنحة اليعسوب في دهشة.

وواصل باك كلامه قائلًا: «آه أيتها الأرض! آه أيتها النساء! منذ الوقت الذي رأيت فيه «تيتانيا» أصبحت عبدًا للأولى، ومعجبًا روحيًّا للأخرى.» ثم أضاف كأنه يتحدَّث في حالة من الحلم السعيد: «تلك اليواقيت! في مدينة باريس العظيمة، بينما أنا أطير متخفيًا عن العيون، كنت أراها في كل مكان. كانت تلتمع على صدور الغواني، وفي الحُلي الغريبة التي يحبها محدثو الثراء، وفي خواتم الأمراء الإيطاليين، وفي أساور كبار الممثلات.»

واستمر يقول وهو يبتسم ابتسامة ماكرة: «لقد تسللتُ إلى مخدع قرمزي اللون في غاية الأناقة ... وكانت به امرأة نائمة. وقد انتزعت من عنقها الميدالية، وأخذت الياقوتة من الميدالية. وها هي الآن أمامكم.»

وانفجر الكل ضاحكين. وترددت أصداء جلجلة الأجراس المعلقة في الطراطير.

– «إن باك لشيطان مريدٌ حقًّا!»

ثم ردَّد الجن آراءهم بشأن الحجر الكريم المزيف الذي صنعه الإنسان، أو بالأحرى العالِم!

– «زجاج!»

–«سحر!»

– «سموم وكابالا!»

– «كيمياء!»

– «إنه يحاول تقليد جزء من قوس قزح!»

– «الكنز المتورِّد من أعماق الأرض!»

– «مصنوع من الأشعة المتجمدة للشمس الغاربة.»

أما أكبر الجن سنًّا فكان يتمشَّى بساقَيه المغضَّنتين ولحيته الثلجية الطويلة؛ فبدا كالبطريق وقد غطَّت وجهه التجاعيد. قال: «أيها السادة، إنكم لا تدرون ماذا تقولون.»

وأنصت الجميع.

– «أنا، أنا أكبر من أي واحد منكم؛ لأنني أصلُح الآن كي أدقَّ جوانب الماسات بالمطرقة. أنا، الذي شهد بناء هذه القلاع العميقة. أنا، الذي حفرتُ عظام الأرض بالإزميل، وسبكتُ الذهب. أنا الذي ضربتُ حائطًا صخريًّا بيدي، وسقطتُ في بحيرة عانقتُ فيها الحوريات. أنا، كبيركم، سوف أقول لكم كيف تم صُنع الياقوتة. أنصتوا.»

وابتسم باك في تساؤل. والتفَّ جميع أفراد الجن برفيقهم الهرِم الذي كان شعره الأشيب يبدو شاحبًا أمام وهج الجواهر، والذي كانت يداه تُلقيان ظلالًا متحركة على الجدران المغطاة بالأحجار الثمينة، كأنها صفحة من القماش المغطاة بعسل النحل والتي ارتشقَت فيها حباتٌ من الأرز.

«في يوم من الأيام، أعلنَت فِرقنا التي كانت تحرس مناجم الماس الإضراب عن العمل، وهو إضراب هزَّ الأرض كلها هزًّا، وقمنا بالهرب من خلال فوهات البراكين.

كان العالَم تغمره السعادة، وكل شيء مفعم بالقوة والشباب، وكانت الورود، والأوراق الخضراء الطازجة، والطيور التي تزدرد الحبوب بمناقيرها ثم ينطلق منها التغريد العذب، كل ذلك كان يرحب بالشمس والربيع المتضوِّع بالعطر.

كانت التلال المزهرة يُظللها التناغم الذي تخلقه أغاريد الطيور وطنين النحل، إنه كان أشبه بالعرس العظيم المقدس الذي ينسِّقه الضياء؛ فعلى الأشجار كان يتألق في عمق، وبين الحيوانات كانت هناك حركة دائمة إما في صورة ثُغاء أو غناء، وبين أفراد الجن كانت تشيع الضحكات والسعادة.

كنت قد خرجتُ عن طريق فوهة بركان خامد، فوجدتُ أمامي حقلًا مترامي الأطراف. وبقفزة واحدة، اعتليتُ شجرة كبيرة، سنديانة عتيقة دائمة الخضرة. ثم هبطتُ على جذعها فوجدتُ نفسي بالقرب من غدير نهر رقراق صغير حيث كانت المياه تتبادل مع بعضها البعض نكات بلَّورية. كنت عطِشًا، فحاولتُ الشرب منه ... والآن، أنصتوا جيدًا.

أذرُع، ظهور، صدور، زنابقُ بيضاء، ورود، لفائف عاجية صغيرة تُكلِّلها حبات الكرز، أصداء ضحك مرِح ذهبي، وهناك وسط الزبَد، بين المياه المائجة، تحت الفروع الخضراء ...»

– «ماذا؟ حوريات؟»

– «كلَّا. نساء. وعرفتُ أيَّ كهف كان يخصني. ودققتُ على الأرض فانفتح لي الرمل الأسود ووصلتُ إلى قصري. آه أيتها الجن الشابة الصغيرة، ما زال أمامكم الكثير كي تعرفوه!»

وتجولتُ تحت بعض نبتات السرخس، وفوق بعض الأحجار التي صقَلها التيار الهامس الرغوي، أما هي، الحلوة، المرأة، فقد قبضتُ على خصرها، بهذه الذراع التي كانت سابقًا مفتولة العضلات. وصرخَت، بينما دققتُ أنا على الأرض، فهبطنا معًا؛ فعلى السطح، كان كل شيء خوفًا ودهشة؛ أما تحت الأرض، فكان الجن المتغطرس المنتصر.

وكنت يومًا أطرق جزءًا من ماسة هائلة تلتمع كالنجمة، والتي انشطرَت إلى أجزاء صغيرة بضربة مطرقتي.

وأصبحَت أرضية ورشتي أشبهَ ببقايا شمس متناثرة. كانت المرأة الحبيبة تستريح على جنبها، وردة بشرية بين أصص الزهور السافيرية، إمبراطورة ذهبية على مهد من البلَّور الصخري، متجردة كأنها إلهة من إلاهات الأساطير.

ولكن، في وسط قصري، كانت مليكتي، حبيبتي، جمالي، تخدعني. حين يكون الرجل يشعر بحب حقيقي، تنفُذ عاطفته إلى كل شيء، ويصبح في إمكانه أن يعلو على الأرض.

كانت تحب رجلًا، ومن سجنها تنقل إليه نهداتها. وكانت النهدات تمر عبر مسام السطح الخارجي للأرض وتصل إليه. وكان هو يحبها مثلما تحبه، ويطبع قبلاته على ورود إحدى الحدائق، وكانت هي، حبيبته، كما لاحظتُ، تعتريها نوبات من التشنج المفاجئة تمدُّ فيها شفتيها إلى الأمام، بحمرتها التي تشبه حمرة الورود. كيف كان بوسعهما أن يشعرا ببعضهما البعض؟ ومع كل ما أمتلك من قوى السحر، لم أكن أدري جوابًا لذلك السؤال.

كنت قد فرغت لتوِّي من عملي، وأمامي كوم كبير من الماسات صنعتها كلها في يوم واحد، وفتحَت الأرض شقوقها الجرانيتية كأنها الشفاه الظمأى، في انتظار انشطار البلَّور الزاخر. وفي نهاية العمل، شطرتُ صخرة أخيرة بمطرقتي ثم استغرقتُ في النوم.

واستيقظت بعد ذلك بقليل، على صوت أنين.

كانت حبيبتي، المرأة التي اختطفتها، تحاول الهرب من عُقر فراشها، من غرفتها التي كانت أكثر ثراءً وتألقًا من حجرات كل ملكات الشرق. وكانت تحاول الهرب من خلال الثقب الذي احتفرَته مطرقتي، وكانت متجردة جميلة، فدمرتُ جسدها الذي كان من قبلُ ناصعًا كالحليب وناعمًا كأزهار البرتقال والمرمر والورد، على حواف الماسات المشطورة. وكانت جروح جسدها تقطر بالدم، وهي تئن من الألم؛ بحيث تصاعدت الدموع إلى عيني. يا لها من أحزان!

وقمت فأخذتُها بين أحضاني، وانهلتُ عليها بأحر القبلات؛ لكن الدم واصل انسيابه مغرقًا الحجرة، واصطبغَت كتلة الماس الضخمة بلون حمرة الدم.

وحين كنت أقبِّلها، بدا كما لو كنت أشمُّ عطرًا يهرب من شفتيها المحترقتَين؛ روحها. وبقي جسدها بلا حراك.

«وحين مرَّ أبونا العظيم ذو السنوات المائة، وجد تلك الكومة من الماسات الحمراء.»

وساد صمت.

– «هل فهمتم؟»

ونهض الجان في رزانة، وفحصوا الحجر المزيف عن قرب، عمل ذلك العالِم.

– «انظروا، ليست بها جوانب.»

– «إن وهجها منطفئ.»

– «زائفة!»

– «إنها مستديرة كصدفة الجعران.»

ثم قاموا، واحدًا وراء الآخر، كيما ينتزعوا من على الجدران قطعًا من الزخارف، يواقيت حجمها كحجم البرتقالات، حمراء متلألئة كالماسات المخضوبة بالدماء. وقالوا: «إن هذه لنا، يا أمَّنا الأرض!»

كان احتفالًا صاخبًا من البريق والألوان.

وأخذوا يضحكون وهم يقذفون في الهواء أحجارًا كريمة مضيئة هائلة الحجم. وقالوا فجأة بكل رزانة الجان: «حسنًا إذَن، إننا نشجب هذا العمل.»

وفهم الجميع. وأخذوا الياقوتة المزيفة، وكسروها إلى مئات القطع، وقذفوا بالشظايا — باحتقار عظيم — إلى حفرة في الأرض تفضي إلى غابة متفحمة ضاربة في أعماق القِدم.

وبعد ذلك، شبَّكوا أيديهم وبدءوا يرقصون رقصة رنانة محمومة فوق يواقيتهم وأحجارهم الكريمة، بين هذه الجدران المتوهجة.

واحتفلوا في ابتهاج وهم يرَون أنفسهم يتطاولون في الظلال التي تنعكس لهم. وفي ذلك الحين، كان «باك» يطير في الخارج، في إشراقة فجر جديد، في طريقه إلى مرج زاهر. وغمغم بابتسامته الخجول المعهودة: «أيتها الأرض ... أيتها المرأة ... لأنك أنتِ أيتها الأرض الأم، أنتِ عظيمة وخصبة، وصدرك مقدس لا ينضب معينه، ومن رحِمك المظلم تنساب العصارة إلى الأشجار القوية، وإلى المياه الذهبية الشبيهة بالماسات، وإلى الزنبقة العفيفة. كل شيء صافٍ وقوي ولا يمكن تزييفه! وأنتِ، أيتها المرأة، إنك روح وجسد معًا، كلك حب وصفاء!»

ملاريا

تأليف: فكتور كاساريس لارا
(هندوراس)

فكتور كاساريس لارا

عمل لارا مدرسًا في المدارس الثانوية وفي الجامعة، كما عمل في الصحافة، وقد شارك كذلك في الحياة السياسية لبلده هندوراس؛ فكان نائبًا بالبرلمان سنوات عديدة، وسفيرًا لبلاده في فنزويلا. وقد بدأ نشاطه الأدبي في مجال الشعر؛ فنشر ديوانَين من الأشعار الشعبية، قبل أن يكتب أول مجموعة من قصصه القصيرة التي تضمنت هذه القصة: ملاريا. وقد وضعه فنُّه القصصي الواقعي على رأس كتَّاب القصة القصيرة في عصره.

* * *

كان الليل قد بدأ يُسدل الظلمة والشجن في أركان الحجرة المتداعية؛ حيث كان الهواء يدخل في كميات محددة، وحيث لم يكن الضوء، حتى في أكثر أوقات النهار شمسًا، يتيح إنارة كاملة أبدًا. وفي الخارج، كان ثمة صنبور يقطر دون صوت، كأنما كان يخشى أن يسمعه أحد. كان الصنبور الوحيد الذي يطفئ عطش الجماهير التي تقطن المبنى. كان هناك طفل يطلب خبزًا في نبرة باكية، وردَّت الأم على طلبه، ربما بدافع من اليأس، بكلمات مقذعة:
أغلق فمك أيها الوغد ... ليس هنا من أحد قد أكل!

وراقبَت المرأة المريضة الراقدة في الحجرة المتداعية كيف يختفي آخر شعاع من الضوء، لم يكُن لديها كهرباء، وكان الزيت في المصباح الرخيص قد أوشك على النفاد. لم تكن تشعر بأدنى قوة في عضلاتها، ولا بفيضٍ من الدفء في عروقها الخاوية. كانت ثمة برودة مؤلمة تزحف على لحمها الناحل، عابرة إلى وسطها، الذي كان فيما مضى مرنًا رقيقًا كفروع شجرة الصفصاف البرية، ثم تقبض على قلبها الذي بدا الآن مجدولًا بالأحزان، ومتفجرًا بصلاة صامتة، مرتعدًا من العاطفة المكثَّفة التي يشعر بها.

كان ضوء النهار يذبل تدريجيًّا. وكان بالوسع سماعُ خطوات الناس في الطريق وهم يبددون حياتهم هباءً، ساعِين إلى ألوان الترفيه الرخيصة؛ الحانة التي تلتهم الطاقة والمال، ودار البغاء المليئة بالأجساد العفنة التي تباع بأسعار عالية، وباختصار، كل تلك السلسلة من التسالي التي يمكن للفقراء من بيئتنا أن ينغمسوا فيها والتي، بدلًا من أن توفِّر لهم البهجة أو المتعة، تتسبب لهم في الخَور والمرض والشقاء واليأس والموت …

والآن، في مطلع الليل؛ إذ الطيور تغرد في سعادة في الخارج، كانت المرأة تشعر أنها تموت. كانت تشعر أن السيدة الشاحبة تحتضنها وتخنقها ببطء بلا رحمة، بينما البرد القارس يدمر عظامها ويجعل صدغيها ينبضان في جنون.

كانت في عزلة تامة، لا أحد يأتي إليها بكلمة، بكسرة من حنان، بكوب من اللبن. كان عليها أن تخرج بنفسها، فيما بين نوبات الحمَّى الراجفة؛ لتبحث عن فطيرة جافة لتأكلها، دون أي شيء آخر؛ حيث إنه يستحيل عليها شراء أي طعام آخر. وحين تخرج، تشحذ من الناس وتحصل على بعض الملاليم وهي تعاني ذلًّا كبيرًا.

ولم يكن بوسعها أن تفسِّر سبب عزلتها القاسية تلك … كانت دائمًا طيبة مع الناس، وكانت مُحبة للخير وكريمة. وكانت تقوم بكل ما تستطيع لجيرانها، كانت دائمًا محبة للأطفال، ربما لأنها لم يكن لها أيٌّ منهم؛ ولكن ربما ظن الناس أنها نحيفة ومصفرة اللون أكثر من اللازم. ربما سمعوها تسعل واعتقدوا أنها تعاني من مرض السل. كانت تعرف أن الملاريا هي التي تقتلها؛ ولكن ماذا تستطيع أن تفعل كي تقنع الناس بذلك. وفي أثناء ذلك عليها أن تقاسي، وأن تنتظر لحظة النهاية، حتى تتوقف آلامها الكابية وتجوالها اليائس، والنزيف المرعب من باطن قدمَيها …

كانت ثمة ظلال غريبة قد بدأت تتراقص على السقف، وكان صدغاها يدقَّان بصورة أقوى، وبدأ بصرها يعود إلى الماضي القصي البعيد، ماضٍ مشوش بلا حدود معلومة، ولكنه يخلق لها صوتًا يقدِّم لها راحة وقناعة، ويفتح أمامها طريقًا من النور يقودها إلى أصفى لحظات حياتها وأكثرها محبة.

كانت تعيش في ذاكرتها أيام طفولتها في قرية بعيدة؛ حيث يتماوج عبير أشجار الصنوبر التي تبعث الانتعاش، وتغريد البلابل العاشقة، ورائحة العجول الصغيرة الممتلئة بالحيوية والنشاط، وإيقاعات الجداول المتدفقة، وطزاجة الحقول التي يُبللها الندى، وبساطة حياة الريف تتخللها الصلوات على المسبحة.

وفي ثنايا جنبات القرية الصافية الباهرة، بدأت تلاحظ كيف بدأ صدرها ينمو، وكيف تفاعل جسدها مع أول تباشير الحب، الحب البسيط، دون تعقيدات المدنيَّة، بل بالعذوبة البدائية التي اتصفت بها كتابات الحب الرعوي. وبعد ذلك، جاء حنينها للذهاب إلى الساحل، بما يوحي به الحلم بذلك من سعادة وآمال واعدة.

وأشعلت خيالاتها جمرات متوهجة في عقلها البسيط الطيب، وبدأت غرائزها تحرق جسدها الأسمر، بنار تختلف عن نار شمس المناطق المدارية السخية. وبدأت تشعر بالسعادة من التطلع إلى نفسها وقد تخففت من قيود الثياب، فيبرز بهاء جسدها الرائع إلى النور، وحين تداعب النسمات العابثة صدرها، فينفر ثدياها من حدود بلوزتها كأنهما قمعان من النار.

وعندئذٍ قابلت الرجل الذي أوقد نيرانها الداخلية وتحوَّل بها تجاه المغامرة، تحت إغراء غزو آفاق جديدة. وسمعت الدعوة إلى التوجُّه إلى الساحل كأنما هي دعوة للذهاب إلى الفردوس. كانت تحب الرجل لقوته، ونظراته الطيبة، وذكائه، لأنه قد قدَّم لها ما كانت تريد: الحب، وبجانب الحب، الساحل الشمالي.

قال لها: هناك، تنمو أشجار الموز إلى حدٍّ فخم، والأجور مرتفعة، وسرعان ما سيكون بوسعنا أن نكسب الكثير من المال. سوف تساعدينني قدر إمكانك وسننطلق معًا.

– وماذا لو أحببتَ امرأة أخرى وأرسلتَ بي إلى هنا ثانية؟

– لا يمكن أن يحدث ذلك يا حبيبتي؛ فأنتِ الوحيدة التي أحبها وسنعيش معًا إلى الأبد! سوف نركب القطارات ... والعربات ... سوف نذهب إلى السينما، وإلى الحفلات، وإلى كل مكان.

– وهل القطارات جميلة؟

– إنها كالديدان الضخمة السوداء التي تزفر الدخان من رأسها! وهي تحمل كل أشكال الناس من مكان إلى مكان، من «لاليما» إلى «بويرتو». وهناك رجل يهتف بأسماء المحطات: إنديانا ... موبولا ... تييمبو ... كيلي-كيلي ... إنه رائع، سوف ترين!

كانت تتوق إلى الرحيل من بلدة جدودها، أن تحب وترى الدنيا. كانت ترى أن بلدتها تُقعي تحت ليل لا نهار له، وأن جمالها ليس له قيمة فيها، حينما تميل فوق الجدول

الهامس ذي القاع المليء بالصخور والحصباء. كانت تريد أن ترحل عن البلدة الصغيرة اللطيفة التي قضت فيها طفولتها وحيث أودَع الريف البكر والأرض العاطرة في جسدها العبير والرغبات. وهكذا مضَت في طريقها، إلى جوار رجلها، يعبران الوهاد والأنهار الثائرة، ويمران بالوديان التي تحترق بنيران الشمس ويسمعان صرير الجداجد الرتيب الذي يُدخل الجديد على الأيام الرتيبة.

وأي رجل كان رجلها! ففي الليالي التي استغرقتها الرحلة، حين كانا ينامان تحت النجوم، كان يحقق لها كل آمالها وأحلامها ورغباتها. وحين كانت الظلمة تنسدل على الحقول، ثم يبلغ الليل أقصى درجات ظلمته، وحين يبدأ الفجر في رسم سحائبه الوردية على السماء الشرقية البعيدة ... كانت تشعر بالتوقد، بالنيران، بالجسارة، بالشجاعة التي لا يحدُّها حدود التي يتحلى بها رجلها، وتشعر بجسدها كله يطنُّ بنبضات الأمل والكبرياء.

ووصلا أخيرًا إلى مدينة «لاليما» وبدأ البحث عن عمل. وكان «ديمتريو» قادرًا دومًا على العثور على عمل؛ لأن مرحه ونكاته كانت كفيلة بكسبه صداقة ملاحظي العمال والأسطوات والرؤساء؛ بَيدَ أنه سرعان ما يفقد عمله لأنه في الواقع كان سريع الانفعال ميالًا إلى المشاكسة. وطافا بمدن مونتفستا وأومونيتا وموبالا وإنديانا وتيبمبو، والحقول عبر الحدود ... وباختصار، غطيَا كل حقل موز افتتحته شركة الفواكه، في رحلتهما للبحث عن رزقهما. كان أحيانًا يعمل في تنقية الحشائش، وأخرى في قطع أو جمع الموز، وأحيانًا في نشر المبيدات الحشرية التي تغطيه باللون الأخضر من رأسه إلى أسفل قدمَيه. دائمًا من الفجر إلى الغروب، محترقًا من شدة الحر الذي يجعل أوراق أشجار الموز تئز من التعب في الظهيرة ... وفي الليل، يعود متعبًا، منهوك القوى، لا قدرة له على الكلام من التعب الذي ينخر عضلاته التي كانت سابقًا مرنة مرونة الحيوانات البرية في الغابة.

وسقط فريسة للملاريا عدة مرات، فكان يلجأ أكثر فأكثر إلى شراب الويسكي كيما يعالج نفسه. ولكن بلا جدوى؛ ذلك أن المرض استمر معه، والتوقف عن العمل كان يعني الموت جوعًا. وفي تلك الفترة، كانا يعملان في مدينة كيلي-كيلي؛ كانت هي تبيع الطعام، وكان هو يعمل بعقدٍ بسيط. وفي إحدى ليالي شهر أكتوبر، كان الرجال يحصنون ضفة النهر بأكوام أجولة الرمال. وكان تدفق مياه نهر «أولوا» مريعًا. كانت المياه ترتفع فوق مستوى الحاجز، واختفى ديمتريو في التيار الهادر الذي كان يتضخم دقيقة بدقيقة في العاصفة.

وبقيت وحدها مريضة. وداهمتها الملاريا أيضًا. وتركت الحقول والغُصة في حلقها وذهبت إلى الميناء. وجالت هناك تبحث عن عمل، ولم تجد عملًا إلا في «لوس مارينوس»،

وكان عملًا لا ترضى عنه ويملؤها بالخزي والعار. كان الآلاف من الرجال من كل حجم ونوع يتسلَّون بجسدها. وتركت المكان مريضة منهكة وقد ملأت المرارة روحها إلى الأبد. وانتهى بها المآل في بلدة «سان بدروسولا». لم تكن الملاريا لتتركها. كانت نوبات الحمى تشتد يومًا بعد يوم، وها هي الآن ممددة على الحشية البائسة، وقد هجرتها الدنيا، بينما ضوء النهار ينحسر، وظلال مذعورة تعبر وتترك حركتها في الأشعة المرتسمة على السقف.

واستحالت عيناها اللتان عرفتا من قبل كيف تحبَّان إلى بئرَين جافتَين ليس فيهما إلا الألم، ولم تَعُد يداها تحملان آمال الهدهدة أو الدفء الساحر، وأصبح ثدياها الضامران لا يكادان يظهران تحت بلوزتها القطنية المتواضعة. لقد عاثت فيها عاصفة البؤس خرابًا، ولم يَعُد متبقيًا منها سوى يقين الموت البارد.

وفي الطريق كان الأطفال يلعبون في حبور. وثمة اثنان يتحادثان بحديث الحب القديم الجديد. وتكسر سيارةٌ الصمت بعجرفة بوقها القاتلة. وعلى البُعد تسمع صفارة القطار الحادة، وتسير الحياة قدمًا، بحكم الواجب.

حياتي مع الموجة

تأليف: أوكتافيو باز
(المكسيك)

أوكتافيو باز (١٩١٤–١٩٩٨م)

وُلد في مكسيكو سيتي عاصمة المكسيك، من أسرة عريقة في النضال الشعبي والانتفاضات الثورية التي شهدَتها المكسيك منذ استقلالها. وقد بدأ باز الكتابة منذ سنٍّ مبكرة، واشترك في عام ١٩٣٨م في إصدار جريدة «الورشة» التي أعلنت ظهور جيل جديد من الكتَّاب والفنانين في المكسيك. وعمل الكاتب بعد ذلك في السلك الدبلوماسي، فسافر إلى باريس غداة انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية؛ حيث تأثَّر بالتيارات الفنية الحديثة هناك، وشارك أندريه بريتون احتفالاته السيريالية. وشهدَت فترة سفارته لبلاده في الهند صدور عدد من دواوينه الشعرية. وقد استقال باز من عمله احتجاجًا على قمع الحكومة المكسيكية للطلاب خلال دورة الألعاب الأولمبية بالمكسيك عام ١٩٦٨م، وتفرَّغ بعد ذلك للكتابة والعمل الصحفي والتحرير. وأصدر باز بعد ذلك مجلتَي «بلورال» و«فوتا» اللتين مارستا تأثيرًا كبيرًا في أوساط الأدب الإسباني. وقد حصل باز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٠م. ومن أشهر دواوينه الشعرية: «لن يمرُّوا»، «جذور الإنسان»، «بين الأحجار والأزهار»،

«أبناء الهواء»، «أشعار». وكثير من شعر أوكتافيو باز مترجم إلى اللغة العربية.

* * *

حين خرجت من البحر، تقدمَت موجة من الموجات الأخرى وسبقَتها. كانت طويلة وخفيفة. وبالرغم من صيحات الآخرين الذين أمسكوا بثيابها الهفهافة، تعلقَت بذراعي ومشت إلى جواري وهي تتقافز. ولم أشأ أن أقول لها أي شيء؛ لأنني كنت أكره أن أجرح أحاسيسها أمام صديقاتها. وبجانب ذلك، فقد منعتني نظرات الكبار الغاضبة من التصرف. وحين وصلنا إلى المدينة، شرحتُ لها أن من المستحيل أن تبقى معي، وأن الحياة في المدن ليست كما تتخيلها بكل براءة الموجة التي لم تترك البحر أبدًا. ورمقَتني في رزانة ثم قالت: «كلا. لقد اتخذتَ قرارك وليس بإمكانك أن تتراجع عنه.» وجربتُ معها اللين، والشدة، والسخرية. وبكَت، وصرخَت، ولاطفَتني، وهددتَني. ووجب عليَّ أن أعتذر.

وفي اليوم التالي، بدأَت متاعبي. كيف كان يمكننا أن نستقل القطار دون أن يرانا السائق والركاب والشرطة؟ لم تكن اللوائح بالتأكيد تمنع أي شخص من نقل إحدى الموجات بالسكك الحديدية، ولكن ذلك لم يكن ليُقلل من حدَّة الحكم على موقفنا. وبعد تفكير عميق، توجهتُ إلى المحطة قبل الرحيل بساعة كاملة، واتخذتُ مقعدي، وقمتُ، حين لم يكن من أحد يراني، بإفراغ الصندوق الزجاجي للمياه المخصصة للمسافرين، ثم، بحرص شديد، أفرغت فيه صديقتي الموجة.

وجاءَت أولى المشاكل حين أعلن أطفال زوجين قريبين مني عطشهم الشديد. فأوقفتُهم ووعدتُهم بشراء المرطبات وأكواب الليمونادة لهم. وكانوا على وشك قبول العرض حين اقتربت منا إحدى المسافرات الأخريات العطشى. وكنت على وشك تقديم نفس العرض إليها حين منعني من ذلك نظرة الرجل المصاحب لها. وتناولت السيدة كوبًا ورقيًّا وتقدَّمَت إلى الصندوق وأدارَت الصنبور. كان كوبها نصف ممتلئ حين قفزتُ بينها وبين صديقتي الموجة. ونظرَت لي السيدة بدهشة. وبينما كنت أقدِّم اعتذاري، فتح أحد الأطفال الصنبور مرة أخرى، فقمتُ بإغلاقه في عنف. ورفعَت السيدة الكوب إلى شفتيها.

– آغ. هذه المياه مالحة.

وردد الصبي ما قالته. ونهض عدد من الركاب. واستدعى الزوج المحصل: لقد وضع هذا الرجل ملحًا في المياه.

واستدعى المحصل المفتش: إذَن فقَد وضعتَ ملحًا في المياه؟

وبدوره، استدعى المفتش الشرطة: إذَن، فقَد سمَّمت المياه؟

وبدوره، استدعَت الشرطة الكابتن: إذَن، فأنت من وضع السم؟

واستدعى الكابتن ثلاثة محققين. وأخذني المحققون إلى عربة خالية، وسط حملقة الركاب وهمساتهم. وفي المحطة التالية، أنزلوني من القطار ودفعوني دفعًا إلى السجن. ولعدة أيام، لم يكلمني أحد باستثناء الاستجوابات الطويلة. وحين شرحت قصتي، لم يصدقني أحد، حتى ولا السجان، الذي هزَّ رأسه وهو يقول: «إن القضية خطيرة، خطيرة جدًّا. إنك لم تكن تريد أن تسمِّم الأطفال؟» وفي أحد الأيام، مثُلتُ أمام القاضي.

قال: «قضيتك صعبة. سوف أُحيلك إلى قاضي العقوبات.»

ومرَّت سنة. وأخيرًا حكموا عليَّ. وإذ لم يكن هناك ضحايا، كان الحكم خفيفًا. وبعد زمن، حان موعد إطلاق سراحي.

واستدعاني مدير السجن وقال لي: حسنًا، أنت الآن حر. إنك محظوظ. محظوظ أن لم يكن هناك ضحايا؛ لكن لا تفعل ذلك ثانية، لأنه في المرة القادمة لن يكون الحكم خفيفًا.»

وتطلَّع إليَّ بنفس الصرامة التي كان يتطلع بها نحوي الجميع.

وفي نفس أصيل ذلك اليوم، أخذتُ القطار ووصلتُ بعد رحلة متعبة إلى مكسيكو العاصمة. واستقللتُ عربة أجرة إلى البيت. وعند باب شقتي، سمعتُ ضحكًا وغناءً. وأحسستُ بألم في صدري، كلطمة من لطمات الدهشة حين تضرب المفاجآت على قلوبنا؛ كانت صديقتي الموجة هناك، تغني وتضحك كما تعودَت دائمًا.

– كيف جئتِ إلى هنا؟

– أمر سهل؛ بالقطار. فقد قام أحدهم بعد أن تأكد أنني مياه مالحة، بإلقائي فوق ماكينة القطار. لقد كانت رحلة شاقة؛ فسرعان ما تحوَّلتُ إلى خيطٍ من البخار، وتساقطتُ بعدها مطرًا خفيفًا على القاطرة. وقد أصبحتُ أكثر نحافة. لقد فقدتُ قطرات كثيرة.

وقد غيَّر وجودها حياتي؛ فالبيت الذي كانت ردهاته مظلمة، وأثاثه متربًا، امتلأ بالهواء والشمس والأصوات والإشارات الخضراء والزرقاء، وعمر بالأصداء والترجيعات العديدة البهيجة. كم تمتلئ موجة واحدة بالعديد من الموجات! وكم كانت قادرة على تحويل الجدران والدواليب إلى شطآن وصخور بالزبد الأبيض الذي تكلل به هامات تلك الأشياء! بل إن يدَيها الحانيتَين قد مسَّتا حتى الأركان المهجورة، الأركان الكئيبة المغطاة بالغبار والأنقاض. وبدأ كل شيء يضحك، وغطَّى البياض الناصع كل مكان. ودخلت الشمس الغرفات القديمة بسرور وبهجة، وأصبحَت تمكث في بيتي ساعات طويلة، بل

وهجرَت البيوت الأخرى، والحي، والمدينة، والبلد كله. وفي بعض الليالي، كانت النجوم ترقبها وهي تتسلل خارجة من بيتي في وقت متأخر جدًّا.

كان الحب لعبة، إبداعًا أبديًّا. كان كل شيء شواطئَ ورمالًا، وفراشًا تغطيه ملاءات جديدة دائمًا. وكنت إذا احتضنتُها تمتلئ فخرًا، بالغة الطول، كأنها الجذع السائل لشجرة الحور، ثم تتحول تلك النحافة إلى نبعٍ من الريش الأبيض، إلى ريشة من الابتسامات التي تسقط على وجهي وظهري وتغطيني بالبياض. وكانت أحيانًا تتسعُ أمامي، لا نهائية كالأفق، إلى أن تحوَّلتُ أنا الآخر إلى أفق وصمت. كانت مليئة ملتوية، فاجتاحتني كالموسيقى أو كالشفاه العملاقة. كان حضورها ذهابًا وإيابًا من المداعبات والهمسات والقبلات. وقد غمرَتني مياهها بالبلل، ووجدتُ نفسي في طرفة عين معلقًا في الهواء، أشعر بالدوار، لأسقط بعد ذلك كالحجر وأشعر بنفسي راقدًا أتجفف كالريشة. ليس هناك من شيء يضارع الرقاد في أحضان المياه، والاستيقاظ على الآلاف من الأضواء البهيجة، بآلاف من الهجمات التي ترتدُّ ضاحكة.

بَيدَ أنني لم أبلغ أبدًا مركز وجودها، لم ألمس أبدًا عُرى ذلك المكان الخفي الذي يجعل المرآة ضعيفة فانية، ذلك الألم والموت. ربما كانت تلك الأشياء لا توجد بين الموجات، المكان الكهربي الذي يلتقي عنده كل شيء ويلتوي ويستقيم كيما يُغشى عليه في نهاية الأمر. كان إدراكها كإدراك المرأة، ينتشر في صورة تموُّجات، غير أنها لم تكن متَّحدة المركز، بل متجهة إلى الخارج، وتنتشر في كل مرة أبعد وأبعد، حتى إنها تمسُّ مجرات أخرى. وكأن حبها يعني الانتشار إلى آفاق قصية، التفاعل مع نجوم بعيدة لا نعرفها. ولكن مركزها ... كلا، لم يكن لها مركز، بل مجرد فراغ مثل الذي يوجد في دوامة الريح، يجتذبني ويغرقني.

وكنا حين نتمدد بجوار بعض نتبادل الأسرار والهمسات والابتسامات. وكانت تُقعي على نفسها ثم تتساقط على صدري وتتفتح كبراعم الهمس. كانت تُغني في أذني كأنها القوقع الصغير. كانت تصبح وديعة شفافة، وتُمسك بقدمي كأنها حيوان صغير أو مياه هادئة. كانت صافية تمامًا حتى إنه كان بوسعي أن أقرأ كل أفكارها. وكان جلدها في بعض الليالي تغطِّيه طبقة فسفورية، فكنت حين أحتضنها فكأنما أحتضن شذرةً من الليل موسومة بوشم ناري. ولكنها أصبحت أكثر اكفهرارًا ومرارة. كانت في ساعات غير متوقعة تزأر وتئن وتتلوَّى، بدرجة تلفت أنظار الجيران. وحين كان ريح البحر يسمعها، يخمش باب البيت أو يهذي بصوت عالٍ فوق السطح. وكانت الأيام الملبدة بالغيوم تضايقها، فتحطم الأثاث وتطلق ألفاظًا قبيحة وتغطيني بالإهانات وبالزبد الأخضر والرمادي. كانت تبصق،

وتلعن، وتتنبأ. وتلجأ للقمر والنجوم وأثر نور العوالم الأخرى، كانت هيئتها وأحوالها تتغير على نحوٍ كنت أعتقد أنه مدهش، بَيدَ أنه كان مهلكًا كالمد.

وبدأت تفتقد الوحدة. وكان البيت مليئًا بالقواقع والأصداف، بالقوارب الصغيرة التي حطمتها في ثورات غضبها (مع القوارب الأخرى، المحملة بالصور، التي كانت تنطلق كل ليلة من جبهتي لتغرق في دواماتها العنيفة أو السارة). كم فقدت من كنوز في ذلك الوقت! بَيدَ أن قواربي والأغنية الصامتة للقواقع، لم تكن كافية. فوجب عليَّ أن أقيم في المنزل مستعمرة أسماك. وأعترف أنني أحسست بالغَيرة حين رأيتها تسبح في صديقتي، وتهدهد صدرها وتنام بين ساقيها، وتزين شعرها بومضات خفيفة من الألوان.

وكان من بين تلك الأسماك بعضٌ من أشدها ضراوة وكراهة، أشبه بالنمور الصغيرة، ذات أعين ثابتة كبيرة وأفواه مسنونة متعطشة للدماء. ولم أكن أفهم كيف تقوم صديقتي باللعب معها في سرور، وتُبدي لهم دون حياء، من الود ما كنت أفضِّل أن أتجاهله. كانت تمضي ساعات طويلة مع تلك المخلوقات البشعة. وفي يوم لم أعُد أطيق ذلك، ففتحتُ الباب وطردتها. وهربَت الأسماك من يدي في خفَّة كالأطياف، بينما أخذَت صديقتي تضحك وتدفعني حتى سقطتُ على الأرض. واعتقدتُ أنني أغرق. وحين كنت على شفا الموت، محتقن الوجه، ألقَت بي إلى الضفة وأخذَت تقبِّلني، وتقول لي أشياء لا أعرف ما هي. وشعرتُ بالضعف والتعب والمهانة. وفي نفس الوقت، دفعني جمالها إلى أن أغلق عيني؛ لأن صوتها كان عذبًا وهي تُحدثني عن جمال موت الغريق. وحين أفقتُ، بدأتُ أخافها وأكرهها.

وكنت قد أهملتُ أعمالي. فأخذتُ الآن أزور الأصدقاء وأجدد علاقات قديمة وعزيزة. وقابلتُ صديقة قديمة لي. وبعد أن استحلفتُها أن تحفظ سرِّي، حكيتُ لها عن حياتي مع الموجة. ولا شيء يؤثر في المرأة قدر شعورها أن بوسعها أن تُنقذ رجلًا. واستعملَت منقذتي كل ما لديها من فنون، ولكن ماذا بوسع امرأة تسود عددًا محدودًا من الأرواح والأجساد، أن تفعل مع صديقتي الموجة التي كانت تتغير باستمرار وتتشابَه دائمًا مع نفسها في تحوُّلاتها التي لا تنتهي.

وجاء الشتاء. وأصبحت السماء رمادية. وسقط الضباب على المدينة. وأمطرَت السماء رذاذًا متجمدًا. وكانت صديقتي تبكي كل ليلة. وخلال النهار، كانت تنفرد بنفسها في هدوء وتشاؤم، تُتمتم مقطعًا واحدًا كالعجوز التي تُدمدم في ركن من الأركان. وأصبحَت باردة، حتى إن النوم إلى جوارها أصبح يعني الارتعاد طوال الليل والشعور، قليلًا قليلًا،

بالدم والعظام والأفكار تتجمد. وأصبحَت لا يسبَر لها غَور، ومستغلِقة على الأفهام، وقلقة. وكنت أرحل عن المنزل كثيرًا وتطول غَيبتي شيئًا فشيئًا. وكانت هي في ركنها تعوي عاليًا. وبأسنانها الحادة ولسانها القارض، أخذَت تقرض الجدران فتهدِمها. وكانت تقضي الليالي في حداد، تُوبِّخني. وانتابتها الكوابيس، والهلوسة عن الشمس والشطآن الدافئة. وحلمَت بالقطب وأنها تتحوَّل إلى كتلة ضخمة من الجليد تسبح تحت سماوات سوداء في ليالٍ طويلة كالشهور. وأهانَتني. ولعنَت، وضحكَت، وملأَت المنزل بالقهقهات والخيالات. وابتعثَت وحوش الأعماق العمياء السريعة الماكرة. ولما كانت صديقتي ممتلئة بالشحنات الكهربائية، كانت تُحيل كل ما تلمسه إلى فحم. ولما كانت مملوءة بالحوامض الكيميائية، كانت تُذيب كل ما تحتكُّ به. وأصبح عناقها العذب حبالًا غليظة تخنقني. وتحوَّل جسدها، مخضرًّا ومطاطيًّا، إلى سَوط يقرع، يقرع، يقرع. وهربتُ. وضحكَت الأسماك المُخيفة بابتسامات وحشية.

وهناك، في الجبال، وسط أشجار الصنوبر والوهاد، تنسمتُ الهواء البارد النقي كنفحة من نفحات الحرية. وبعد نهاية شهر عدتُ أدراجي. كنتُ قد عزمتُ أمري. كان الجو قد أصبح باردًا لدرجة أنني وجدتُ على رخامة المدفأة، إلى جوار النيران الخامدة، تمثالًا من الثلج. لم يُحرِّكني جمالها المرهق. ووضعتُها في جوال كبير من القماش وخرجتُ إلى الطرقات والجوال على كتفي. وفي مطعم في الضواحي، بعتُها إلى جرسون صديق أخذ على الفور يقطعها إلى قطع صغيرة، وضعها بعد ذلك بحرص في الدلاء التي تبرد فيها الزجاجات.

فيما وراء الحياة والموت

تأليف: سيزار فاييخو
(بيرو)

سيزار فاييخو (١٨٩٥–١٩٣٨م)
شاعر وقصَّاص من «بيرو»، أحد الكتاب المؤثرين في ثقافة بلده وأدبها. كتب عن معاناة السكان الأصليين الهنود في بيرو وفي أمريكا اللاتينية عامة، وهو نفسه من سلالة هندية وبيضاء مختلطة. وقد نفَى نفسه اختياريًّا في فرنسا وإسبانيا وظلَّ يكتب عن المشاكل الإنسانية في وطنه. تعكس قصصه وأشعاره عادات بلده وتقاليده. من أوائل الأدباء في أمريكا اللاتينية الذين مزجوا في كتاباتهم الواقع بالخيال والخرافة، وهي السمة التي أصبحت تميز كثيرًا من كتابات القصَّاصين المعاصرين في تلك القارة، وتعرف حاليًّا بالواقعية السحرية.

* * *

نباتات العليق ساكنة لا تهتز تحت طقس يوليو الحار، والرياح ترقد على سيقان العناقيد التي أثقلتها كثرة الحَب فمالت بها إلى أسفل. وثمة شهوة ميتة فوق روابي الجبال الصيفية تُقعي شبيهة بالسُّرر. انتظر. لا يمكن هذا. فلنغنِّ ثانية. آه، ما أحلاه من حُلم!

كان حصاني يغذُّ السير في تلك الأنحاء. فبعد غياب أحد عشر عامًا، كنا نقترب ذلك اليوم آخر الأمر من سنتياجو، القرية التي وُلدتُ فيها. كان الأعجم المسكين يغذُّ السير، بينما كنت أنا أبكي من أعماق كياني حتى أطراف أصابعي التي برَاها العمل، على أمي التي ماتَت منذ عامين ولم تَعُد تنتظر عودة ابنها المتغرِّب الجَوال. وربما كان بكائي يمرُّ عبر اللجام الذي أمسِك به فيصل إلى أذنَي الحصان المرهفتَين؛ فينعكس على وقع حوافره التي بدَت وكأنها ترقص في نفس هذه البقعة، خطوات راقصة غريبة تقيس الطريق والعالم المجهول من أمامنا. كانت المنطقة كلها؛ الجو الصحو، ولون المحاصيل الليموني في الأصيل، وضَيعة هنا وضَيعة هناك تتعرف عليها روحي، كل هذا كان يحرِّك فيَّ نشوةً من الحنين إلى الموطن. وتقوَّست شفتاي أو كادتا كيما ترقدان على صدر أمي الخالد الذي يفيض إلى الأبد باللبن؛ أجل، إلى الأبد، حتى فيما وراء الموت.

لا بد أنني سرتُ من قبلُ في هذا الطريق مع أمي وأنا طفل. أجل، فعلًا؛ لكن ... كلا. إن أمي لم تذهب إلى هذه الأنحاء. كنت أيامها صغيرًا جدًّا. كان ذلك مع أبي. لا بد أن ذلك حدث منذ سنوات كثيرة! كان ذلك في شهر يوليو أيضًا، مع اقتراب عيد القديس سنتياجو. أبي وأمي يمضيان على ظهر الحصان، وأبي في المقدمة. الطريق الملوكي. وفجأة، يصيح أبي الذي كان قد أفلح لتوِّه في تجنب الاصطدام بشجيرة صبار انتصبَت فجأة أمام الحصان: «انتبهي يا سيدتي!»

بَيدَ أنه لم يكن أمام أمي المسكينة وقت كافٍ للانتباه، فانطرحَت من على السرج وسقطَت على أحجار الطريق. وتعيَّن أن ينقلوها إلى القرية على محفَّة خشبية. وبكيتُ كثيرًا على ما حدث لأمي. ولم يقولوا لي حقيقة ما وقع لها. ثم شُفيَت. وما إن حلَّت ليلة العيد حتى عادت إلى مرحها وضحكتها. لم تَعُد بعدُ طريحة الفراش. وبدا كل شيء جميلًا. ولم أعُد أبكي من أجل أمي.

ولكني أبكي الآن إذ أتذكرها على تلك الحال، مريضة، طريحة الفراش، حين ازدادت حبًّا لي وعطفًا عليَّ، وأصبحَت تمنحني كمية أكبر من البسكويت من تحت وسادتها ومن درج مائدتها. والآن ازداد بكائي وأنا أقترب من سنتياجو؛ حيث سأجدها قد ماتت ودُفنت تحت أشجار ناضجة هامسة في مقبرة متواضعة.

كان قد مرَّ عامان على موت أمي. وقد تلقيتُ أول نبأٍ عن موتها حين كنت في «ليما» العاصمة؛ حيث علمتُ أيضًا أن أبي وإخوتي قد رحلوا إلى ضَيعة قصية يملكها أحد أعمامنا، بُغية التخفيف قدر الإمكان من وقع هذه الخسارة الفاجعة. وكانت الضَّيعة تقع في منطقة

نائية للغاية من سلسلة الجبال، فيما وراء نهر «مارانيون». وكنت أنوي أن أذهب إلى هناك بعد وصولي إلى سنتياجو، طاويًا دروبًا لا نهاية لها خلال نِجاد وعرة وأحراش مجهولة مستعرة.

وصهل حصاني فجأة. وتطاير التبن بكثافة من هذه الزَّفرة البسيطة وكاد أن يُعمِي أبصاري. كومة من الشعير. وعندها لاحت لي سنتياجو على هضبتها الصلدة، بأسطحها التي حرقتها شمس الغروب. ومن ناحية المشرق، كانت تتبدَّى كذلك المقابر القائمة فوق نتوء أحمر موشًّى بالصفرة، وقد ظللتها شمس الساعة السادسة. وكان الموقف فوق ما أحتمل، واجتاحني حزن غامر أصابني بخدَر فظيع.

ووصلت إلى القرية مع حلول الليل. وحين عبرتُ آخر ناصية ودلفتُ إلى الطريق الذي يقع فيه منزلي، رأيتُ شبحَ شخص يجلس وحيدًا على مقعد حجري أمام المنزل. كان وحيدًا مغرقًا في وحدته، حتى إنه بعث في نفسي خوفًا أغرق ما كان في روحي من حزن عميق. وربما كان ذلك أيضًا بسبب الطمأنينة الساكنة التي التصق بها شبحه بصفحة الجدار الناصعة البياض وقد تجمَّد بفعل النور الشاحب الموَّار. وقفز من فوق المقعد الحجري أخي الأكبر «أنخل». واستقبلني معانقًا. كان قد عاد من الضَّيعة النائية منذ عدة أيام لإنجاز بعض المهام في القرية.

وتلك الليلة، بعد أن تناولنا طعامًا خفيفًا، سهرنا معًا حتى الفجر. وقمت بزيارة حجرات المنزل جميعًا، والردهات، والحظائر. ورغم أن أنخل حاول أن يثنيني عن استكشاف المنزل العتيق الحبيب؛ فقد كان هو الآخر على ما يبدو وكأنما يستعذب عذاب النفس الذي ينتج عن التطواف بأماكن الماضي الغائر التي تعبَق بالخيالات والصور.

كان أنخل، خلال الأيام القليلة التي تعيَّن عليه فيها أن يبقى في سنتياجو. يقيم وحيدًا في المنزل؛ حيث بقي كل شيء — كما قال — على ما كان عليه تمامًا عند وفاة أمِّنا. وقد حكى لي أيضًا عن أيامها الأخيرة قبل أن يداهمها المرض القاتل، وعن لحظاتها الأخيرة. ولشدَّ ما عمل عناقنا الأخوي آنذاك على اختراق حُجب أعماقنا الدفينة!

قلت وأنا أفتح بابًا صغيرًا ذا ألواح خشبية: «آه، هذا هو المخزن الذي كنتُ أطلب من ماما، وأنا أتصنَّع البكاء، أن تعطيني منه بعض البسكويت.» وكما هو الحال في جميع البيوت الريفية في جبال بيرو، التي لا يكاد يخلو واحدٌ منها من مقعدٍ حَجري محفور إلى جوار الباب، كان ثمة مقعد مماثل عند العتبة التي خطوتُ منها لتوي، لا شك أنه المقعد العتيق نفسه رفيق طفولتي، بعد أن جرى ترميمه وتنظيفه مرات لا تحصى. وجلسنا

على المقعد الحجري والباب المتهالك مفتوحٌ وراءنا، ووضعنا إلى جوارنا القنديل ذا العين الحزينة الذي كنا نحمله معنا. كان نوره يسقط على وجه أنخل فيُضيئه بكامله. ثم أخذ وجهه يشحب تدريجيًّا مع مرور الليل حتى أصبح يبدو شفافًا تمامًا. وحين رأيته على تلك الحال، قبَّلْتُ خده الملتحي الرصين.

والتمعَت فجأة شعلة من البرق — من ذلك النوع الذي تعرفه جبال بلادنا في الصيف — فأحالَت ظلام الليل نثارًا محطومًا. وفركتُ جَفني. واستدرتُ أواجه أنخل. لكن ... لم يكن هناك من شيء؛ لا هو ولا القنديل ولا المقعد الحجري، لا شيء. ولم أسمع شيئًا. وشعرت كما لو كنت في قبر.

ثم عدت أرى أخي ثانية، والقنديل، والمقعد الحجري. بَيدَ أنني أصبحت أعتقد الآن أن وجه أنخل يبدو ناضرًا هادئًا؛ وأضحى — وربما كنت مخطئًا — كأنما قد عُوفِي من شقائه وضعفه السابقين. وأعود فأكرر أن ذلك ربما كان خداع بصرٍ ليس إلا، فمثل هذا التحوُّل لم يكن معقولًا.

وتابعت كلامي قائلًا وأنا أجهش: «ما زال بوسعي أن أراها كما كانت آنذاك. لم تكن المسكينة تعرف ماذا تفعل؛ إذ تعطيني البسكويت ثم تُعنِّفني قائلة: «لقد ضبطتك أيها الكذاب الصغير، تدَّعي البكاء وأنت في الحقيقة تضحك سرًّا.» وكانت تقبِّلني أكثر مما تقبِّل أيًّا منكم، إذ كنت أنا آخر العنقود!»

وفي نهاية تلك السهرة الحزينة الشجية، بدا لي أنخل مرة أخرى محطومًا ومنهكًا على نحو يدعو للعجب، كما كان قبل سطوع البرق. لذلك فلا بد أنني قد انتابني خداع البصر من جرَّاء لمحة البرق حين طالعتُ في وجهه راحة وبهجة لم يكن ممكن وجودهما في الواقع بطبيعة الحال.

وفي اليوم التالي، لم يكن الفجر قد طلع بعدُ حين امتطيتُ صهوة الحصان مرتحلًا إلى الضَّيعة القصية حيث تقيم أسرتي، بعد أن ودعت أنخل الذي كان يتعيَّن عليه البقاء في القرية أيامًا أُخَر لإنهاء الأعمال التي جاء من أجلها.

وفي نهاية أول يوم من أيام الرحلة حدث شيء عجيب؛ كنت مضطجعًا على مقعد خارج الخان الذي نزلت به أستريح، حين حدجتني عجوز من تلك النواحي بنظرة رعب مفاجئة وسألَتني في عطف: «ماذا حدث لوجهك يا سيدي؟ يا إلهي، إنه يبدو ملطَّخًا بالدماء في كل مكان!»

وقفزت من على المقعد. وبالفعل، رأيت وجهي في المرآة ملطخًا ببقع الدماء الجافة. واعترتني رجفة طاغية، وهفوتُ إلى أن أهرب من نفسي. دماء؟ ومن أين جاءت؟ لقد

ضغطت وجهي على وجه أنخل حين كان يبكي ... لكن ... كلا، كلا. من أين جاءت الدماء إذَن؟ وفي وسع المرء أن يتخيل ما اصطخب في صدري من صدمة ورعب. لقد عانيتُ من ضغط على قلبي على نحوٍ لم أشعر به من قبل أبدًا في حياتي. ليست هناك من كلمات تعبر عما شعرتُ به آنذاك، الآن أو في أي وقت آخر. وحتى اليوم، كان كل ذلك هنا، في هذه الحجرة المنعزلة التي أكتب فيها: الدماء الجافة ووجهي الملطَّخ بها والعجوز عند الخان، وذلك اليوم إذ أخي يبكي، أخي الذي لم تقبِّله أمي.

وبعد أن كتبتُ هذه العبارات الأخيرة، فررتُ إلى شرفتي، لاهث الأنفاس، يغمرني عرق بارد؛ فإلى ذلك الحد كانت ذكرى تلك الدماء الغريبة مريعة بالنسبة لي.

وقضيتُ ليلة مليئة بالكوابيس في ذلك الخان الذي لا يُنسى، تبدَّت لي فيها صورة أمي الميتة في إطار من خيوط جامحة، خيوط لا نهاية لها، تتحطم في اللحظة التي تتبدَّى فيها، تتبدل مع صورة أخي أنخل الذي كان يبكي يَواقيت حية، على الدوام.

وواصلت رحلتي. وأخيرًا، بعد مسيرة أسبوع من التقافز فوق الجبال وبين الأحراش، وبعد عبور نهر «مارانيون»، وجدت نفسي ذات صباح سائرًا في منطقة الضَّيعة. كانت سماؤها الملبدة بالسحب تردد — في نوبات متقطعة — صدى الرعد القصي، وتسمح بين حين وآخر بمرور أشعة الشمس لحظات قصيرة.

وترجَّلت عن حصاني عند العمود القائم لربط الدواب لدى البوابة الخارجية للمنزل. ونبحَت عدة كلاب في سكون الجبال الحزين. ها أنا قد عدتُ الآن بعد سنوات طويلة إلى ذلك المنزل المنعزل المزروع في أعمق أغوار الأحراش.

ومن خلال شقشقة الطيور المذعورة، ارتفع صوتٌ في الداخل يدعو كلب الحراسة الضخم ويكبح جماحه. وبدا حصاني المرتجف المنهَك، ويا للغرابة، كأنه يزفر عند سماع الصوت، وصهل ثانية وثانية، وأرهف أذنيه إلى أعلى، وحاول إذ يشبُّ بقوائمه أن ينزع اللجام من يدي وينطلق جامحًا. كانت البوابة الخارجية الضخمة مغلقة. ولا بد أنني قد طرقتها بحركة آلية، وبعدها ارتفع ذلك الصوت نفسه من وراء الجدران. وفي اللحظة التالية، إذ انفتحت البوابة الضخمة بصوت يهزُّ النخاع، توقَّف ذلك الصوت الرنان فوق سنواتي الست والعشرين، وتركني أحدِّق في ... الأبدية.

وانفتح الباب على مصراعيه.

فلتتأمل لحظةً هذه الحادثة غير المعقولة التي حطمَت قوانين الحياة والموت وعبرت فوق كل احتمال، كلمة أمل وإيمان بين المستحيل والمطلق، ذلك الانفصال اليقيني بين

الزمان والمكان – سديم، مجبول من تناغمات مجهولة لا تناغم بينها، يتجمع كله في صيحة واحدة!

فقد خرجَت أمي من وراء الباب تستقبلني.

صاحت، مذهولة: «ابني! أأنت حي؟ هل عدتَ إلى الحياة؟ يا إله السماوات، ماذا أرى أمامي؟»

أمي! أمي، بجسمها وروحها، على قيد الحياة؟ وكانت تضَّطرم بالحياة لدرجة أعتقد معها أنني قد شعرت فجأة — وأنا واقف أمامها — بكُريات من برد الشكِّ تسقط على قلبي وتثقل جسدي فتجذبه إلى أسفل حتى انحنى ظهري وبدوتُ شيخًا هرمًا، كأنما أمي، بحيلة من حيل القدَر الخرافية، قد وُلدَت لتوها وأصبحتُ أنا بدوري آتيًا من أزمنة ماضية حتى إنني عدت أشعر تجاهها بمشاعر الأب نحو ابنته.

أجل، كانت أمي هناك. ترتدي السواد. على قيد الحياة. ليست ميتة. هل هذا ممكن؟ كلا. كيف يكون ذلك؟ مستحيل. إن هذه السيدة ليست أمي. لا يمكن أن تكون أمي. وعندئذٍ، ماذا قالت حين رأتني؟ هل كانت تظن أنني قد متُّ؟

صاحت: «يا ابني الغالي!»، وانفجرت في البكاء، واندفعت تحتضنني بين صدرها، في تلك النوبة من البكاء الفرِح التي اعتادت أن تحييني بها في غدواتي وروحاتي.

وتصلَّب جسدي. ورأيتها تلقي ذراعيها الحبيبتَين حول عنقي، وتقبِّلني في نهم كأنما هي تريد أن تأكلني أكلًا، وهي تجهش بعبارات إعزاز لن تنفذ مرة أخرى إلى أعماق وجودي بعد ذلك أبدًا. وتناولت فجأة وجهي الخالي من أي تعبير بين يديها، ونظرَت لي هكذا، وجهًا لوجه، وهي تمطرني بالأسئلة. وبعد عدة ثوانٍ، بدأتُ أبكي أنا الآخر، ولكن دون أن تتغير ملامح وجهي أو حتى أتحرك. كانت دموعي كالماء الصافي المنبجِس من عينَي أحد التماثيل.

وأفلحتُ أخيرًا في استجماع كل روحي المشتتة وخطوتُ إلى الوراء بضع خطوات. وعندها، آه يا إلهي القدير! تأكدتُ من حضور أمي، أمي التي لم يكن قلبي ليقبَلها، أمي التي أنكرها فؤادي وخافها، تأكدتُ من حضورها في ذلك الوقت المقدَّس الذي كان مجهولًا لديَّ حتى تلك اللحظة. وأطلقتُ صيحة خافتة ذات حدَّين في حضورها الكامل، بنفس إيقاع المطرقة التي ترتفع وتهوي على السندان، أو أول عويل يطلقه الوليد حين يُنتزع من رحم أمه كأنما يبلغها مقدمه حيًّا إلى الدنيا، ويعطيها في نفس الوقت إشارة وكلمة سر يتعارفان بهما بعد ذلك إلى الأبد.

وتأوهتُ وقد فاضَت بي نفسي: «أبدًا! أبدًا! لقد ماتت أمي منذ وقت طويل … لا يمكن ذلك.»

ووقفتُ وقد أخافتها كلماتي، كأنما هي تشكُّ أنني ابنها. وجذبتني بين ذراعيها مرة أخرى وطفق كلانا يبكي دموعًا لم يبكِها أي مخلوق من قبل ولن يبكيها مخلوق من بعد.

ورددت: «أجل، لقد ماتت أمي بالفعل. إن أخي أنخل يعلم ذلك.»

وعند ذلك الحد، اندفعت لُطخ الدماء التي رأيتها على وجهي إلى ذهني كأنها علامة آتية من عالم آخر.

وهمسَت: «يا ابن قلبي. هل أنت ابني الميت الذي رأيته بنفسي في نعشه؟ أجل، إنه أنت، أنت بلحمك. إني أومن بالله. تعالَ بين ذراعي! ألا ترى أنني أمك؟ انظر لي! المسني يا بني. أهذا ممكن أنك لا تصدقني؟»

وراقبتُها مرة أخرى. ولمستُ رأسها الصغير الجليل الذي يغطيه الشعر الأبيض. لا شيء. لا أصدق شيئًا.

وأجبتُها: «أجل، إني أراك. إني ألمسك. ولكني لا أصدِّق. لا يمكن أن تحدث كل هذه الأشياء المستحيلة».

وضحكتُ ما وسعني الضحك.

المحوَلجي

تأليف: خوان خوسيه أريولا
(المكسيك)

خوان خوسيه أريولا (١٩١٨م)

وُلد أريولا في ولاية «خاليسكو» بالمكسيك، وعمل وهو صبي في السابعة من عمره، ولم يكمل تعليمه الابتدائي. بَيدَ أنه نجح بدأبه وصبره ودراساته الخاصة من الانتقال من عامل في السوق إلى أن يصبح مدرسًا للتاريخ والأدب في مدينة «جوزمان». وقد درس المسرح على أيدي المشاهير في المكسيك وفي باريس. ثم أصدر عام ١٩٤٥م مجلة «خبز»، التي نشر فيها أولى قصصه القصيرة. وتتالت بعدها مجموعاته القصصية، ورواية واحدة أصدرها عام ١٩٦٣م بعنوان «المهرجان». وقد نُشرت قصة «المحوَلجي» عام ١٩٥٥م، ولفتت الانتباه بأسلوبها الرمزي الخيالي ونقدها الاجتماعي اللاذع.

* * *

وصل الغريب متقطع الأنفاس إلى المحطة المهجورة. كانت حقيبته الضخمة، التي لم يجِد أحدًا يحملها عنه، قد أرهقته غاية الإرهاق. ومسح وجهه بالمنديل وهو يحمي عينيه بيده، وتطلَّع إلى قضبان السكة الحديدية التي تمتد إلى الأفق. وبلغ به التعب والقلق منتهاهما؛ فنظر إلى ساعته؛ كان موعد وصول القطار تمامًا.

ووجد أحدهم — من أين أتى يا تُرى؟ — يربت عليه بلطف. وحين استدار الغريب، وجد نفسه وجهًا لوجه مع رجل هرِم ضئيل الحجم، خمن بصعوبة أنه أحد العاملين بالمحطة. كان يحمل في إحدى يديه فانوسًا أحمر صغيرًا كاللعبة. وتفحَّص المسافرَ بابتسامة على وجهه، بينما المسافر يسأله في قلق: من فضلك، هل غادر القطار المحطة؟

– يبدو أنك لم تأتِ إلى هنا منذ فترة طويلة.

– ينبغي لي أن أسافر على عجَل. يجب أن أكون في مدينة «ت.» عند تباشير الصباح.

– يمكن لأي امرئ أن يرى أنك لا تعرف أي شيء عن الموقف. إن أول شيء عليك أن تفعله هو النزول في فندق المسافرين.

وأشار إلى مبنًى غريب رمادي اللون كان يصلح أن يكون ثكنة عسكرية.

– أنا لا أريد استئجار غرفة. أريد أن ألحق بالقطار.

– سارِع بالبحث عن غرفة لك، إذا كان هناك أي مكان شاغر. إذا وجدت مكانًا، فاستأجره بالشهر. سيكون ذلك أرخص، كما ستكون الخدمة أفضل.

– أأنت مجنون؟ لا بد أن أكون في مدينة «ت.» في الصباح الباكر.

– في الواقع، إنك تستحق أن أتركك لتتبيَّن الأمور بنفسك. ولكني سأعطيك نصيحة صغيرة.

– والآن، اسمع ...

– هذه البقعة من العالم مشهورة بسككها الحديدية كما تعلم. وحتى الآن، لم نتمكن من وضع جميع التفاصيل، ولكننا حققنا المعجزات بطبع جداول المواعيد وترويج التذاكر. إن دليل السكك الحديدية يوجد في كل أنحاء البلاد، والتذاكر تباع إلى كل شخص مهما كان شأنه ومكانه. وكل ما علينا أن نفعل الآن هو أن نجعل القطارات نفسها تتوافق مع جدول المواعيد المبيَّنة، أن نجعل القطارات تأتي إلى محطاتها في الواقع. إن هذا هو ما يطمح إليه الناس هنا، وإلى أن يتم ذلك؛ فنحن نتحمل عدم انتظام الخدمات، ووطنيتنا هي التي تحول بيننا وبين إبداء ضيقنا.

– ولكن، هل ثمة قطار يمرُّ بهذه المدينة؟

– لو قلتُ إنه كان هناك قطار لكان ذلك خطأً صريحًا. وكما بوسعك أن ترى بنفسك، فلدينا القضبان، رغم أن بعضها مقلقل شيئًا ما. وفي بعض الأماكن، ليست القضبان إلا رسمًا على الأرض يمثل خطين من خطوط القلم. وفي واقع الأمر، ليس هناك من قطار ملزَم بالوقوف هنا، ولكن ليس هناك ما يمنع أن يأتي إذا أراد ذلك. وخلال مسيرة عمري، رأيت

قطارات عديدة تمرُّ من هنا، وعرفت عدة مسافرين ركبوا متنها. لو أنك انتظرت حتى تحين اللحظة المناسبة، فربما أمكنني أنا نفسي أن أتشرف بمعاونتك في الصعود إلى عربة مناسبة؛ حيث يمكنك السفر في راحة.

– ولكن هل سيحملني القطار إلى مدينة «ت.»؟

– وهل يجب أن تكون مدينة «ت.» وليس أي مكان آخر؟ يتعيَّن عليك أن تهنئ نفسك على مجرد الصعود إلى القطار. وحالما أصبحت في القطار، سوف تتخذ حياتك نوعًا من التوجه العملي. وماذا يهم لو لم تصل إلى مدينة «ت.» على أية حال؟

– أول الأسباب، أن تذكرتي هي لمدينة «ت.» وليس غيرها. ومن الطبيعي أن أتَّجه إلى مقصدي، أليس كذلك؟

– ثمة كثيرون يوافقونك على رأيك. وسوف يُتاح لك في الفندق التحدث مع أناس اتخذوا كل احتياطات ممكنة وابتاعوا مجموعات كبيرة من التذاكر. وكقاعدة عامة، يحجز ذَوو البصيرة النافذة تذاكر إلى كل مكان في الخط. هناك أناس أنفقوا ثروات طائلة على شراء التذاكر.

– كنت أعتقد أنني أحتاج تذكرة واحدة للذهاب إلى «ت.» انظر ...

– إن المجموعة المقبلة من القطارات الأهلية سوف تشيَّد على نفقة فرد واحد استثمرَ لتوه ثروة في تذاكر الذهاب والعودة لخطوط سكك حديدية لم يتم بعد اعتمادها من المهندسين، بما في ذلك الأنفاق والكباري الحديثة.

– ولكن ماذا عن خط القطار الذاهب إلى «ت.» ألا يزال يعمل؟

– هذا وأكثر منه أيضًا. ليست هناك نهاية — والحق يُقال — للقطارات في البلد. وبوسع المسافرين استخدامها في كثير من الأحيان، بالنظر إلى عدم وجود خدمة منتظمة. وبمعنى آخر، لا أحد ممن يستقلُّون القطارات يتوقع أن يذهب إلى حيث يريد الذهاب في واقع الحال.

– كيف هذا؟

– إن الإدارة، في تَوقها إرضاء الجمهور، تقوم بإجراءات يائسة في بعض الحالات. فهناك قطارات تذهب إلى مناطق لا يمكن عبورها. وتستغرق تلك القطارات الاستكشافية عدة سنوات لإتمام رحلتها أحيانًا، وتمرُّ حياة المسافرين فيها بتحولات كثيرة في إبان ذلك. وانقضاء الأجل ليس نادرًا في تلك الأحوال، ولذلك أضافت الإدارة، تحسبًا لأي طوارئ، عربة

جنائزية وعربة دفن إلى القطار. ويفخر الكمسارية بأنهم يقومون بترك جثث المسافرين، بعد تحنيطها تحنيطًا فاخرًا، على منصات المحطات بعد ختم تذاكرهم كما يجب. وفي بعض الأحيان، تجري تلك القطارات الطارئة في مسارات ليس بها سوى قضيب واحد، وهنا يهتز جانب كامل من العربات على نحو مفزع إذ العجلات تضرب العوارض الخشبية. ومن حسن تدبير الإدارة أنها تخصص الجانب الذي يسير على القضيب لمسافري الدرجة الأولى، أما مسافرو الدرجة الثانية فعليهم تحمل مشقة رحلتهم. وهناك أماكن ليست بها قضبان على الإطلاق، وهنا يتساوَى الركاب جميعًا، إلى أن يتحول القطار في نهاية المطاف إلى حطام متناثر.

– يا إله السماوات!

– سأقول لك شيئًا. لقد بزغت قرية «ف.» الصغيرة إلى الوجود من إحدى تلك الحوادث. فقد حاول القطار أن يتعامل مع أرض وعرة؛ إلا أنه انغرس في الرمال، وانبعجت العجلات على محاورها. وقد مضى زمن طويل على الركاب في تلك الحالة، حتى إن الكثير من الصداقات الحميمة نمَت بينهم. وسرعان ما تطورت تلك الصداقات إلى علاقات، وكانت النتيجة هي «ف.»، القرية التقدُّمية المليئة بالأطفال الصغار الوقحين الذين يلعبون بمخلفات القطار الصدئة.

– حسنًا! لا يمكنني القول بأني أهتم بمثل هذه القصص.

– يجب عليك أن تضفي الصرامة على شخصيتك، فربما أصبحت بطلًا. فعليك ألا تفترض عدم وجود فرص أمام المسافرين كيما يثبتوا شجاعتهم أو قدرتهم على التضحية. فذات مرة، كَتب مائتان من الركاب، وسيظلون بلا أسماء، أكثر الصفحات مجدًا وفخارًا في تاريخ سككنا الحديدية؛ فقد حدث أن اكتشف مهندس القطار، في رحلته التجريبية، سهوًا فظيعًا من جانب جزء من عمال الطريق لدينا. ذلك أن جسرًا كان يجب أن يغطي وهدة عميقة في الطريق كان غير موجود. حسنًا أيها السيد؛ فبدلًا من أن يعود المهندس أدراجه بالقطار، ألقى خطبة عصماء في الركاب ونجح في أن يجعلهم يساهمون في المبادرة اللازمة للمضي في الرحلة. وتحت إشرافه النشيط، تم تفكيك القطار قطعة قطعة، حملها الركاب على أكتافهم إلى الجانب الآخر من الوهدة؛ حيث فوجئوا بوجود نهر مائج أمامهم. وكانت نتيجة ذلك العمل البطولي مبعث إلهام للإدارة التي تخلَّت تمامًا بعد ذلك عن تشييد الكباري ومنحت المسافرين تخفيضًا كبيرًا لما سيقومون به من ذلك العمل الإضافي.

– ولكن يجب عليَّ أن أكون في مدينة «ت.» في الصباح!

– إنك لقوي متين. إني سعيد أن أراك ملتزمًا بأمورك. إنك رجل يلتزم بعقيدته تمامًا. احجز لنفسك غرفة في فندق المسافرين وخذ أول قطار يصل! على الأقل، ابذل كل جهدك، فستجد الآلاف ممن يعترضون طريقك. فحالما يصل أحد القطارات حتى يقوم المسافرون، وقد ضاقوا بالانتظار الطويل، بالاندفاع خارجين من الفندق في ذعر ويستولون على المحطة. وكثيرًا ما يُفضي سلوكهم المتهور والخشن إلى حوادث. وبدلًا من الصعود إلى القطار في نظام، يتكدَّسون جميعًا على الرصيف. وبعبارة أخف؛ فإن كل مسافر يسدُّ الطريق أمام الآخر حتى يمضي القطار تاركًا الجميع في فوضى مريعة على رصيف المحطة. أما المسافرون فيقفون منهكين يتصاعد الزبد من أفواههم ويلعنون الافتقار إلى التنوير ويُمضون وقتًا طويلًا في توجيه السباب والإهانات إلى بعضهم البعض.

– والشرطة، ألا تتدخل؟

– جرى ذات مرة تنظيم ميليشيا لحراسة المحطة في كل أطرافها، بَيدَ أن عدم انتظام مواعيد القطارات جعل منها خدمة لا قيمة لها وعالية التكلفة. وعلاوة على هذا، أبدى موظفوها أنفسهم علامات فساد؛ فقد كانوا يقومون بحماية الأغنياء من المسافرين، الذين يعطونهم كل ما يملكون لقاء خدماتهم، لمجرد ركوب القطار. وقد أنشئت مدرسة خاصة يتلقَّى فيها من ينتوون السفر دروسًا في التمدُّن ونوعًا من التدريب الأساسي لقضاء بقية حياتهم في قطار. فكانوا يتلقَّون دروسًا في الطريقة السليمة لركوب القطارات حتى حين تكون القاطرة تتحرك أو تعبر في أقصى سرعتها. وفيما بعد، كانوا يُزوَّدون بنوع من الصفائح المدرَّعة لمنع المسافرين الآخرين من كسر ضلوعهم.

– ولكن، هل تنتهي متاعب المسافرين حالما يركبون القطار؟

– نسبيًّا، أجل. وإني أنصحك فحسب أن تُبقي عينَيك مفتوحتَين على المحطات. فمثلًا، قد تتصوَّر أنك في مدينة «ت.»، لتجد بعد ذلك أن هذا كان سرابًا. ذلك أن الإدارة، حتى تسيطر على الأمور في القطارات الشديدة الازدحام، تجد من الضرورة اللجوء إلى وسائل معينة. فهناك محطات توضَع من أجل المظاهر فحسب؛ فهي تقام وسط البراري وتحمل أسماء مدن هامة. ولكن من السهل، بقليل من الحذر، اكتشاف الخدعة. فهي كالديكور الذي يقام على خشبة المسرح، والناس المعروضون هناك هم صور طبق الأصل مصنوعة من نشارة الخشب. وتلك الدُّمى يظهر عليها أثر الطقس والزمن، بَيدَ أنها أحيانًا ما تكون شبيهة بالواقع؛ فوجوهها تبين عن التعب الذي لا حدَّ له.

– حمدًا لله أن مدينة «ت.» ليست بعيدة!

– ولكن ليست هناك خطوط مباشرة إلى «ت.» في الوقت الحاضر. ومع ذلك؛ فقد يكون من الممكن أن تكون في «ت.» في الصباح الباكر من غد. ذلك أن هيئة السكك الحديدية، بالرغم من كل أوجه قصورها، لا تلغي إمكانية وجود رحلات دون أي توقُّف. هل تصدِّق أن هناك أناسًا لا يُحسون بأية مشاكل في الوصول إلى أماكنهم المقصودة؟ فهم يشترون تذكرة إلى «ت.»، ويأتي قطار، ويركبون، وفي اليوم التالي يسمعون الكمساري يهتف: القطار يدخل إلى «ت.» وبدون تخطيط أو تدبير، يهبطون من القطار ليجدوا أنفسهم في «ت.» دون عناء.

– أليس هناك من طريقة أستطيع بها أن أفعل نفس هذا الشيء؟

– أعتقد هذا بالطبع! ولكن، من يستطيع أن يضمن أن ذلك يسهل الأمور. جرِّب ذلك، بكل سرور! اصعد إلى القطار بهدف الوصول إلى «ت.» ولا تتصل بأي من الركاب الآخرين، فهم سيثبِّطون همَّتك بالحكايات التي يقولونها ويتحينون الفرص للوشاية بك.

– ما هذا الذي تقوله؟

– واقع الأمر أن القطارات تكون مليئة بالجواسيس. وهؤلاء الجواسيس، وهم متطوعون في غالب الأحيان، يكرِّسون حياتهم لحفز «الروح البناءة» لدى الإدارة. وأحيانًا لا يكادون يفقهون ما يقولون، ويتحدثون من أجل الحديث وحسب. ولكنهم في أي لحظة مستعدون لخلع كل معنًى ممكن على عبارة عابرة، مهما كانت بسيطة. وهم خبراء في إخراج مدلولات تجريمية لأي ملاحظات بريئة. فزلة لسان بسيطة حَرية بأن تقودك إلى السجن، فتقضي بقية حياتك في سفينة تمخر عباب البحر، هذا إذا لم يُلقَ بك في محطة من المحطات في وسط الفراغ. اجمع كل ثقتك وابدأ رحلتك، لا تأكل إلا أقل القليل، ولا تضع قدمك على رصيف المحطة قبل أن ترى وجهًا تعرفه في «ت».

– ولكني لا أعرف أحدًا في «ت.»!

– في تلك الحالة، عليك بالمزيد من الحذر. ستتعرض لإغراءات كثيرة خلال الطريق، ثِق من ذلك. فلو نظرت من نافذة القطار، قد تسقط فريسة الهلوسة؛ فالنوافذ مزوَّدة بأجهزة حديثة تبذر كل ألوان الأوهام في عقول المسافرين. من السهل التعرض لكل تلك الأشياء. هناك آلية من نوع معين، يتم التحكم فيها من القاطرة، تعطي الانطباع نتيجة الضوضاء والحركات التي تصدر عنها، بأن القطار يسير. ولكن الحقيقة هي أن القطار يكون ثابتًا في مكانه أسابيع كاملة، بينما يشاهد المسافرون مناظر الطبيعة الخلابة من نوافذ القطار.

– وما الهدف من وراء هذا كله؟

– لقد رتبت الإدارة هذا الأمر لغرض التقليل من قلق المسافر وإزالة أي شعور بالغربة. وهم يأملون بذلك أن يترك المسافرون يومًا ما كل شيء للصدفة ويضعوا أنفسهم بين يدي مؤسسة عملاقة، ولا يفكروا بالمرة في الجهة التي يقصدونها أو الجهة التي أتَوا منها.

– وماذا عنك؛ هل ركبت القطار كثيرًا؟

– أنا؟ ما أنا إلا محوَلجي بسيط يا سيدي. والحقيقة أنني محوَلجي على المعاش، ولا أظهر إلا من حين لآخر كيما أستعيد الأيام الخوالي. إنني لم أقُم بأي رحلة في حياتي، وليست عندي أي رغبة في ذلك على الإطلاق. بَيدَ أنني أسمع الكثير من أفواه المسافرين، وأعرف أن القطارات قد تسببت في نشأة الكثير من المجتمعات من قبيل الذي ذكرتُه من قبل. وأحيانًا يتلقَّى طاقم القطار أوامر سرية، فيقومون بدعوة المسافرين إلى مغادرة القطار، غالبًا بحجة التأمل في جمال الطبيعة في بقعةٍ ما. وقد يحكون للمسافرين عن كهوف أو شلالات أو آثار مهمة. فمثلًا يعلن الكمساري بلطف: «خمس عشرة دقيقة للتمتع بمرأى هذا الكهف أو ذاك!» وحين يصبح الركاب على مبعدة مناسبة، يسرع القطار بالاختفاء.

– وماذا يحدث للمسافرين؟

– إنهم يتنقلون في اضطراب من مكان لآخر لفترةٍ ما، ولكنهم في النهاية يتجمعون ويشكِّلون مستعمرات صغيرة. وتلك التوقفات المفاجئة تحدث في مناطق ملائمة بعيدة عن العمران وغنية بالموارد الطبيعية. وهنا يعمد فريق من الشباب المنتَقين إلى الانغماس في كل المسرات المتاحة، خاصة مع الفتيات. ما رأيك في أن تقضي بقية أيامك في بقعة قصية خلابة بصحبة فتاة جميلة؟

وغمز الرجل العجوز بعينه نحو المسافر وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزًى. وفي الوقت نفسه، سُمعت صفارة على البعد. ووقف المحوَلجي وقفة انتباه وبدأ يرسل إشارات مضحكة لا معنى لها بفانوسه.

وتساءل المسافر: أهذا هو القطار؟

وطفِق العجوز يغذُّ السير قدمًا وسط القضبان على غير هدًى. وحين أصبح بعيدًا، التفت وهو يصيح في المسافر:

– أتمنى لك حظًّا سعيدًا! سوف تصل إلى هناك في الغد. ما اسم تلك المحطة الغالية التي تقصدها؟

– محطة «س.».

وبعد لحظة. كان الرجل قد ذاب في الهواء. ولكن نقطة فانوسه الحمراء كانت تسير وتتقدَّم عبر ممر القضبان، في تهور، نحو القطار القادم.

وفي الطرف الآخر من الممر، تقدَّمت القاطرة هادرة بكل قوتها وضجيجها.

الأحد، الأحد

تأليف: ماريو فارجاس يوسا
(بيرو)

ماريو فارجاس يوسا (١٩٣٦م)

وُلد في بلدة «أريكيبا» ببيرو، ودرس القانون في جامعة سان ماركوس بليما العاصمة. بدأ في كتابة أول قصصه عام ١٩٥٦م وحصل على عدة جوائز أدبية. والتحق بعد ذلك بالجامعة المركزية بمدريد لدراسة الآداب، ثم انتقل للإقامة في باريس حيث كتب عددًا من رواياته التي حازت شهرة واسعة، ومنها: «الرؤساء» و«مدينة الكلاب». وبعد أن ذاعت كتاباته، عمل أستاذًا زائرًا في عدة جامعات في أوروبا وأمريكا، وتنقَّل في عدة عواصم قبل أن يعود إلى بلاده عام ١٩٧٤م. ومن بين رواياته المعروفة: «البيت الأخضر»، «الأشبال»، «العمة خوليا»، «حرب نهاية العالم»، «من قتل بالومينو موليرو؟» كما أنه كتب عدة كتب نقدية عن الرواية في أمريكا اللاتينية وعن روايات جارسيا ماركيز. وقد زار يوسا مصر في عام ٢٠٠٠م؛ حيث لقِي ترحيبًا كبيرًا من الأوساط الثقافية فيها.

* * *

حبس أنفاسه لحظة، وغرس أظافره في راحة يده، وقال بسرعة: «إنني واقع في غرامك.» ورأى وجهها يتضرج بالحمرة فجأة، كأنما صفعها أحدهم على خدها الذي كان ناعمًا ذا

شحوب صقيل. وشعر بالرهبة والاضطراب يعقِلان لسانه. وأراد أن يجري هاربًا وينهي الموضوع. وفي ذلك الصباح الشتائي الساكن، شعر بغمرة الضعف الداخلي الذي عادةً ما يتغلَّب عليه في اللحظات الحاسمة. وقبل ذلك بلحظات، كان ميجيل يقف بين زمرة الأصدقاء الباسمين النشطين في المتنزه المركزي في مدينة «ميرافلوريس»، ويقول لنفسه: «الآن، حين نصل إلى شارع «برادو» سوف أنتهز الفرصة. آه يا روبين، لو تدري كم أكرهك!» وحتى قبل ذلك، في الكنيسة، كان يبحث عن «فلورا» فوجدها عند أحد الأعمدة؛ فشقَّ طريقه بجسارة وسط النسوة المحتشدات، نجح في الاقتراب منها وحياها بصوت خفيض، مرددًا لنفسه باقتضاب كما فعل هذا الصباح وهو ممدد على السرير يرقب أول شعاع من الضوء: «لا مفرَّ من ذلك، لا بد أن أفعلها اليوم، هذا الصباح. سوف تدفع ثمن ذلك يا روبين.» وفي الليلة السابقة، بكى لأول مرة منذ سنوات عديدة، بعد أن تحقق من الفخ المزعج الذي ينتظره. وكانت الحشود قد دخلت إلى المتنزه وخلا شارع «برادو» من المارة. كانت الزمرة تسير في الشارع، تحت أشجار المطاط ذات الأوراق الكثيفة العالية. وجال بخاطر ميجيل: «يجب أن أسرع وإلا ضاعت الفرصة.» وتطلَّع جانبًا، وحواليه. لم يكن هناك أحد. وحرَّك يده اليسرى ببطء حتى لمست يدها. وبيَّن لها الالتقاء المفاجئ ما كان يحدث. كان يتوق إلى وقوع معجزة تُنهي هذه المهانة. وقال لنفسه: «أخبرها، أخبرها.» وتوقفت، وجذبت يدها، وشعر بنفسه مهجورًا أبله. وطارت من ذهنه كل العبارات المتوهجة التي أعدَّها بحماس في الليلة الماضية كأنها فقاعات الصابون.

وتلعثم قائلًا: «فلورا، لقد انتظرتُ هذه اللحظة وقتًا طويلًا. منذ عرفتك، وأنا لا أفكر إلا فيك. إنني واقع في الحب لأول مرة، صدقًا. إنني لم أعرف أبدًا فتاة مثلك.»

وبعدها خلا ذهنه من أي شيء، فراغ تام. كان الضغط هائلًا. وأحس بجلده رخوًا مطاطيًّا، وانغرست أظافره في عظامه. وبالرغم من ذلك، مضى في كلامه متألمًا، يتوقف كثيرًا، ويتغلب على لعثمته، محاولًا شرح عاطفته الهوجاء الحارقة، إلى أن وجد أنهما قد وصلا إلى أول ساحة في شارع «برادو»، فصمت. وكان منزل فلورا يقع بين الشجرة الثانية والشجرة الثالثة بعد الساحة. وتوقفا، ونظر الواحد منهما إلى الآخر. وكانت فلورا قد أصبحت مهتاجة عند ذاك، مما أضفى لمعة على عينَيها. وفي يأس، جال بخاطر ميجيل أنها لم تكن أبدًا بمثل هذا الجمال. وكان ثمة شريط أزرق يربط شعرها، وكان بوسعه أن يرى مطلع جيدها، وأذنيها، مثل علامتي استفهام صغيرتَين كاملتَين.

قالت بصوت موسيقيٍّ متزن رقيق: «أرجوك يا ميجيل. لا يمكنني أن أردَّ عليك الآن. وإلى جانب ذلك فأمي لا تريدني أن أخرج مع أولاد حتى أنتهي من الدراسة.»

وأصرَّ ميجيل: «كل الأمهات يقُلن ذلك يا فلورا. ومن سيقول لها؟ سوف نتقابل حينما تقررين ذلك، حتى لو كان ذلك أيام الأحد فقط.»

قالت فلورا وهي تَخفض من بصرها: «سوف أعطيك ردًّا، وإنما يجب أن أفكر أولًا.» ثم أضافت بعد برهة: «اعذرني، لا بد أن أذهب؛ فالوقت متأخر.»

واعترى ميجيل وهن عميق، شعور سرى في كل أنحاء جسده فأرخى عضلاته.

وقال في خفوت: «إنكِ لست غاضبة مني يا فلورا؟»

فردت في إشراق: «لا تكن أبله. إنني لست غاضبة.»

قال ميجيل: «لسوف أنتظر ما تشائين من وقت. لكننا سنظل نتقابل، أليس كذلك؟ بوسعنا الذهاب إلى السينما هذا الأصيل.»

فقالت في لين: «لا يمكنني اليوم، فقد دعتني «مارتا» إلى بيتها.»

واجتاح جسده وهج دافئ وشعر بنفسه يتألم ويبهت من الردِّ الذي كان يتوقعه، والذي بدا الآن عذابًا فوق عذاب. إذَن فكان حقًّا ما همس به «ميلانيز» بقوة في أذنه في أصيل يوم السبت. فلسوف تتركهما مارتا وحدهما؛ اللعبة القديمة. وبعد ذلك، سيقول روبين للجماعة كيف دبَّر هو وأخوه الموقف، المكان وزمانه. وتزعم مارتا، ثمنًا لذلك، أنها تجسست عليهما من وراء الستار. كانت يداه قد تبللتا من الغضب.

– كلا يا فلورا. لسوف نذهب إلى حفلة الماتينيه كالعادة. لن أقول لأحد شيئًا، أعدك بهذا.

قالت فلورا: «كلا. حقيقة لا أستطيع. لا بدَّ لي من الذهاب إلى مارتا. لقد ذهبَت إلى منزلي بالأمس كيما تدعوني. ولكني سأذهب معها بعد ذلك إلى متنزه سالازار.»

بَيدَ أنه لم يشعر بأي أمل حتى في تلك العبارة الأخيرة. وبعد ذلك بلحظة، كان غارقًا في الفكر في البقعة التي اختفت عندها الفتاة الصغيرة، تحت القوس العظيم الذي تشكِّله أشجار المطاط في الطريق الواسع. كان يمكن لها أن تتخذ خصمًا بسيطًا، ولكن ليس روبين. وعادت إلى ذاكرته أسماء الفتيات اللاتي دعتهن مارتا، في أصيل يوم الأحد. لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئًا الآن، كان قد هُزم. ولاح أمامه مرة أخرى ذلك الشبح الذي كان يُنقذه دائمًا في أوقات الإحباط؛ فعلى خلفية من السحب التي تكوَّنت بفعل الدخان الأسود، على رأس مجموعة من طلبة الكلية البحرية يتقدمهم تجاه قاعدة مقامة في المتنزه لأداء التحية العسكرية، كان هناك أناس من علية القوم يرتدون الملابس الرسمية، وقبعاتهم في أيديهم، ونسوة يشتملن على مجوهرات برَّاقة، وكلهم يصفقون له. وعلى الرصيف، كانت

مجموعة يرى فيها وجوه أصدقائه وأعدائه، يقفون يرقبونه في روع ويهمسون باسمه. وكان ميجيل يرتدي الحلة الزرقاء، ومعطفًا عريضًا يفيض من كتفيه، ويسير في المقدمة وهو يتطلع إلى الأفق البعيد. وشهر سيفه، وأدار رأسه ناحية الحضور. وهناك، في وسط الجميع، كانت فلورا تبتسم. ولاحظ روبين قابعًا في أحد الأركان، مهمَلًا خازيًا. واكتفى بأن وجَّه إليه نظرة ازدراء خاطفة، ومضى في سيره واختفى وسط الهتافات.

بَيدَ أن المشهد اختفى كما يختفي البخار حين يُمسح من سطح المرآة. كان قد بلغ بابَ منزله، يشعر بكُرهٍ للدنيا كلها، وبكُرهٍ لنفسه. ودخل وتوجَّه مباشرة إلى غرفته، وألقى بنفسه على السرير راقدًا على بطنه. وفي وسط الظلمة تحت عينيه ظهر وجه الفتاة. وردد بصوت عالٍ: «أحبك يا فلورا.» وبعدها ظهر وجه روبين بفكِّه الصفيق وابتسامته الساخرة. وبقِي الوجهان جنبًا إلى جنب، واقتربا منه. وتحوَّلت عينا روبين لتسخر منه، بينما كان فمه يتجه إلى فلورا.

وقفز من فراشه. ونظر إلى وجهه في مرآة الدولاب فرآه مكفهرًّا مزرَقًّا. وقرر ألا يسمح بذلك. إن روبين لا يمكن أن يقوم بذلك، لن أسمح له أن يفعل ذلك بي.

وكان شارع برادو لا يزال خاليًا. وغذَّ الخطو في سيره إلى أن بلغ تقاطع شارع جراو؛ وانتابه التردد عندها. وشعر بالبرد؛ إذ كان قد ترَك سترته في البيت، ولم يكن القميص وحده يحميه من الرياح التي تهبُّ من البحر والتي كانت تمشِّط الأوراق الكثيفة لأشجار المطاط في صوت رتيب. وخلعت عليه الصورة الفظيعة لفلورا وروبين معًا الشجاعة، فمضى في سيره. ومن عتبة باب الحانة التي تُجاور سينما «مونت كارلو»، رآهم جالسين إلى مائدتهم المعهودة، يحتلون الركن الذي يشكله جداران. وشاهده «فرانسسكو»، و«ميلانيز»، و«توبياس» الذي كانوا يسمونه العلامة، وبعد أن بدت عليهم الدهشة، تطلعوا إلى روبين وقد بدا على وجوههم المكر والإثارة. وسيطر على نفسه بسرعة، فقد كان يعرف بالتأكيد كيف يتعامل مع الرجال.

قال وهو يدنو منهم: «هاللو. ما الأخبار؟»

قال العلامة وهو يجذب مقعدًا: «اجلس. أي معجزة جاءت بك إلى هنا؟»

قال فرانسسكو: «لقد مضى قرن من الزمان لم نرَك فيه هنا.»

وقال ميجيل بحرارة: «كنت أريد أن أراكم. وعرفت أنكم ستكونون هنا. لماذا تعتريكم الدهشة هكذا؟ أم أنني لم أعُد عضوًا في جماعة «الصقور»؟» وجلس على مقعد بين ميلانيز وتوبياس. وكان روبين في مواجهته.

وصاح العلامة: «هات كوبًا آخر يا كونشو. أقل قذارة.» وحين جاءت الكوب، ملأها العلامة بالبيرة، ورفعها ميجيل هاتفًا: «في صحة الصقور» وشربها كلها.

وقال فرانسسكو: «كأنك تريد أن تبلع الكوب أيضًا. يا له من عطش!»

وقال ميلانيز وهو يغمز بعينه في رضًا كما يفعل دائمًا وهو يدبر أمرًا ما: «أراهن أنك حضرت قدَّاس الساعة الواحدة. أليس كذلك؟»

قال ميجيل دون أي اضطراب: «أجل، ذهبت. وإنما كي أرى فتاة ليس إلا.»

ونظر إلى روبين نظرة تحدٍّ، بَيدَ أن روبين لم يأبه له. كان يدقُّ على المائدة بأصابعه، ويصفر بهدوء ولسانه بين أسنانه لحن أغنية «الفتاة الراقصة».

وقال ميلانيز: «عظيم، عظيم أيها الدون جوان. قل لنا، أي فتاة؟»

– «هذا سرٌّ.»

فذكَّره توبياس قائلًا: «ليس هناك من أسرار بين الصقور. هل نسيت ذلك؟ هيا، قل لنا من هي.»

فقال ميجيل: «وما أهمية ذلك بالنسبة لك؟»

فرد توبياس: «يهمني كثيرًا. يجب أن أعرف من تكون حتى أعرف من أنت.»

فقال ميلانيز لميجيل: «عظيم؛ واحد مقابل صفر.»

قال فرانسسكو: «أراهن أن بإمكاني أن أخمِّن من تكون. ألا تستطيع أنت ذلك أيضًا؟»

قال توبياس: «وأنا أعرف.»

وقال ميلانيز: «وأنا أيضًا.» وتحوَّل إلى روبين، وقال بكل براءة في صوته وعينيه: «وأنت أيها الأخ، هل بوسعك أن تخمن من تكون؟»

فقال روبين ببرود: «كلا. والأمر لا يهمني.»

وقال العلامة: «إن معدتي تحترق. ألن يطلب لنا أحد بيرة؟»

قال ميلانيز بالإنجليزية وهو يمرر أصبعه على رقبته: «ليس معي أي نقود يا عزيزي.»

وأعلن توبياس بإيماءة فخيمة: «سوف أشتري زجاجة. من سيتبعني؟ لا بد لنا أن نطفئ نيران هذا البليد.»

قال ميجيل: «كونشو، أحضر لنا نصف دستة زجاجات.» وتبع ذلك صيحات الحماس والتعجب.

قال فرانسسكو مؤكدًا: «إنك صقر حقيقي.»

وأضاف ميلانيز: «مجنون، مجنون. أي نعم يا سيد، صقر من أعلى درجة.»

وأحضر كونشو البيرة. وشربوا. واستمعوا إلى ميلانيز وهو يحكي قصصًا بذيئة رديئة مبالغًا فيها. ونشبَت مناقشة حادة حول كرة القدم بين توبياس وفرانسسكو. وحكَى العلامة حكاية: كان قادمًا من مدينة «ليما» إلى ميلافلوريس بالأوتوبيس. ونزل المسافرون الآخرون عند شارع أريكيبا. وعند مبدأ شارع برادو، صعد إلى الأوتوبيس «توماسو» ذلك الذي يدعونه الحوت الأبيض، ذلك الأشقر الضخم الذي ما زال في السنة الأولى الابتدائية، والذي يسكن في «كبرادا» — تعرفونه؟ — وتظاهر بأنه مهتم بالأوتوبيس؛ فبدأ يوجِّه الأسئلة للسائق وهو ينحني على المقعد من الوراء بينما يشقُّ في نفس الوقت قماش المقعد الخلفي بسكين معه.

قال العلامة: «لقد فعل ذلك لأنني كنت هناك. كان يريد إظهار مهارته.»

قال فرانسسكو: «إنه مختلٌّ عقليًّا. إنك تفعل مثل تلك الأشياء حين تكون في العاشرة. أما وأنت في هذه السن، لا يكون الأمر لطيفًا.»

فضحك العلامة قائلًا: «اللطيف هو ما حدث بعد ذلك. قلت للسائق: اسمع أيها السائق، ألا تعرف أن هذا الشيطان يدمر عربتك؟ فقال السائق وهو يفرمل فجأة: ما هذا؟ مما جعل توماسو يقفز خارجًا من باب الأوتوبيس وعيناه تشعَّان بالفزع الشديد. ولكم أن تتصوروا حالته هكذا ومعه سكين حاد. وقد أفلح أخيرًا في الخروج من الأوتوبيس وأسرع يعدو في شارع أريكيبا والسائق يعدو وراءه صائحًا: أمسكوا هذا المجنون.»

وسأل ميلانيز: «وهل أمسك به؟»

– لا أعلم، فقد غادرتُ الأوتوبيس وأخذت معي مفتاح السيارة كتَذكار. ها هو.

وتناول مفتاحًا صغيرًا من الفضة من جيبه ووضعه على المائدة. كانت الزجاجات قد فرغت. ونظر روبين إلى ساعته ونهض واقفًا.

قال: «إني ذاهب. سلام.»

فقال ميجيل: «لا تذهب. أنا اليوم من الأغنياء. إني أدعوكم جميعًا إلى الطعام.»

وربتت أيد كثيرة على ظهره استحسانًا، وشكره الصقور وهتفوا له.

قال روبين: «لا أستطيع. ورائي مشاغل.»

فقال توبياس: «حسنًا إذَن، اذهب أيها الصبي. احمل سلامي إلى مارتا.»

وقال ميلانيز: «سوف نذكرك أيها الأخ.»

فقال ميجيل: «كلا. إنني أدعو الجميع أو لا أحد. فإذا رحل روبين، ألغيتُ الدعوة.»

قال فرانسسكو: «أتسمع ما يقول أيها الصقر روبين؟ عليك أن تبقى.»

وقال توبياس: «عليك أن تبقى.»

قال روبين: «إني ذاهب.»

قال ميجيل: «الموضوع هو أنك ثمِل. إنك ذاهب لأنك تخشى أن تنهار أمامنا، هذا هو كل شيء.»

فردَّ روبين: «كم مرة اضطررت أن أصحبك إلى منزلك وأنت مغشي عليك تقريبًا؟ كم مرة عاونتك على صعود السلم حتى لا يُمسِك بك أبوك؟ بوسعي أن أتحمل عشر مرات ما تتحمله.»

فقال ميجيل: «أصحيح هذا؟ إذَن فلماذا لا تجرِّب؟»

قال روبين: «بكل سرور. نتقابل إذَن هذه الليلة.»

– كلا. الآن.

وتحوَّل ميجيل ناحية الآخرين وصاح وهو يفتح ذراعيه: «أيها الصقور، إني أتحدَّى.»

ولحسن الحظ، كانت تلك الصيغة لا تزال فعالة. ففي وسط الضجة التي أثارها، شاهد روبين يجلس وقد امتقع لونه.

صاح توبياس: «كونشو، قائمة الطعام. ودلوان من البيرة. لقد أعلن أحد الصقور تحديًا.»

وطلبوا شرائح اللحم ودستة من زجاجات البيرة. ووضع توبياس ثلاث زجاجات أمام كل من المتنافسَين. وكانت بقية الزجاجات للآخرين. وتناولوا الطعام دون الكثير من الكلام. وكان ميجيل يشرب بعد كل لقمة وحاول أن يبدي بعض الحماس؛ بَيدَ أن خوفه من عدم استطاعته تحمُّل كل هذه البيرة كان يتزايد بتزايد طعمها الحريف في حلقه. وأنهيا الزجاجات الست بعد قليل من قيام كونشو برفع الأطباق.

وقال ميجيل لروبين: «لك أن تطلب.»

– ثلاثًا أخرى لكل منا.

وبعد أول كوب من الطلب الجديد، شعر ميجيل بطنين في أذنيه. وكان رأسه يدور في بطء، وكل شيء يلفُّ أمام عينيه.

قال: «أريد الذهاب إلى دورة المياه.»

وضحك الصقور، بينما قال روبين: «هل تستسلم؟»

وصاح ميجيل: «إني ذاهب لدورة المياه. اطلب عددًا آخر من الزجاجات إن شئت.»

وتقيَّأ في دورة المياه، ثم غسل وجهه جيدًا وهو يحاول أن يزيل أي علامة على ما يشعر به. كانت ساعته تشير إلى الرابعة والنصف. وعلى الرغم من شعوره الحادِّ بالإعياء، كان يشعر بالسعادة. ليس بوسع روبين الآن أن يفعل أي شيء مع فلورا. وعاد إلى الآخرين.

قال روبين وهو يرفع كأسه: «في صحتك.»

وجال في خاطر ميجيل أنه محنق، ولكني أوقفته الآن عما كان ينتويه.

وقال ميلانيز: «ثمة رائحة لشخص ميت. هناك شخص يموت بيننا.»

فأكد ميجيل وهو يحاول التغلب على سخطه وإعيائه: «إني نشط تمامًا.»

وكرر روبين: «في صحتك.»

وحين أفرغا آخر كوب من البيرة، شعر بثقل في معدته؛ وكانت أصوات الآخرين تصل إليه كأصوات مشوشة مختلطة. وظهرت يدٌ فجأة تحت عينيه، بيضاء كبيرة الأصابع، أمسكت بذقنه وأرغمته على رفع رأسه. كان وجه روبين قد تطاول. كان مضحكًا، مشعث الشعر غاضبًا.

– أتستسلم يا ولد؟

واستجمع ميجيل قواه فجأة وأزاح روبين. ولكن قبل أن يتمكن من متابعة تلك الحركة، تدخل العلامة قائلًا وهو يعيدهما إلى مقعديهما: «الصقور لا يتعاركون أبدًا. كلاهما ثمِل. انتهى الموضوع. تصويت.»

ووافق ميلانيز وفرانسسكو وتوبياس، على مضض، أن يعلنا أن النتيجة هي التعادل.

وقال روبين: «إني قد كسبت بالفعل. إنه لا يتحمل. انظروا إليه.»

وبالفعل كانت عينا ميجيل زجاجيتين، وفمه مفتوح على وسعه، وخيط من اللعاب يسيل من لسانه.

وصاح العلامة: «اسكت. إنكَ لست بطلًا في عبِّ البيرة، كما نقول.»

وأضاف ميلانيز: «إنك لست بطل شرب البيرة. أنت بطل السباحة فحسب، إنك شيطان أحواض السباحة.»

قال روبين: «يحسُن بك أن تلزم الصمت، ألا ترى أن الحسد يلتهمك التهامًا؟»

قال ميلانيز: «يعيش إستر ويليامز بلدة ميلافوريس.»

قال روبين: «إنك ضخم ومع ذلك لا تعرف العوم. أتريدني أن أعطيك دروسًا؟»

قال العلامة: «إننا نعرف أيها البطل. لقد كسبت بطولة في السباحة. وكل الفتيات متيَّمات بك. البطل الصغير.»

فقال ميجيل بصعوبة: «بطل في لا شيء. إنه زائف.»

قال روبين: «إنك على وشك أن يُغشى عليك. هل أصحبك إلى المنزل يا فتاة؟»

فأصر ميجيل: «إنني لستُ ثملًا. وأنت زائف.»

قال روبين: «إنك مطحون لأنني سوف أرى فلورا. إن الغَيرة تقتلك. أتظن أنني لا أعرف كيف تسير الأمور؟»

قال ميجيل: «زائف. لقد كسبت لأن أباك رئيس الاتحاد. الكل يعرف أنه قد استخدم نفوذه حتى تفوز.»

فقال روبين: «وأنت من بينهم جميعًا، ليس بوسعك أن تطفو على الماء.»

قال ميجيل: «إنك لا تفضُل أي أحد في السباحة. أي واحد بوسعه أن يسبقك.»

فقال ميلانيز: «أي واحد. حتى ميجيل، وهو ليس الأفضل.»

قال روبين: «اسمح لي أن أبتسم.»

فقال توبياس: «نسمح لك. هذا هو كل ما نريد».

قال روبين: «إنكم تقولون ذلك لأننا في الشتاء وإلا كنت قد تحديتكم جميعًا أن نذهب إلى الشاطئ كيما نرى ماذا أنتم فاعلون في المياه.»

قال ميجيل: «لقد فزت بالبطولة من أجل أبيك. أنت زائف. إذا أردت أن تعوم، فقل لي، هذا هو كل ما في الموضوع. عند الشاطئ، في «ترازاس»، أينما شئت.»

فقال روبين: «عند الشاطئ. الآن.»

قال ميجيل: «إنك زائف.»

فقال روبين: «إذا أنتَ كسبتَ، أعِدُ بأنني لن أرى فلورا. وإذا أنا فزتُ، فبوسعك أن تغني في مكان آخر.»

فتلجلج ميجيل قائلًا: «من تظنُّ نفسك أيها الوغد؟ هه، من تظن نفسك؟»

قال روبين وهو يفرد ذراعيه: «أيها الصقور، إني أعرض تحديًا.»

فقال العلامة: «إن ميجيل ليس مستعدًا الآن. لماذا لا تقترعان على فلورا وحسب؟»

فقال ميجيل: «اخرج أنت منها. إني أقبَل. هيا بنا إلى الشاطئ.»

فقال فرانسسكو: «لن أذهب إلى الشاطئ في هذا البرد. تراهنا على شيء آخر.»

قال روبين: «لقد قبِل. هيا بنا.»

قال ميلانيز: «حين يعلن أحد الصقور تحديًا يجب أن يُمسِك كل واحد لسانه. هيا بنا إلى الشاطئ. وإذا خافا من الدخول إلى البحر، فسنقذف بهما فيه.»

وأصرَّ العلامة على رأيه قائلًا: «إنهما ثملان. التحدي غير مقبول.»

فزأر ميجيل قائلًا: «اسكت أيها العلامة. إني رجل ولا أحتاج أن تعتني بي.»

فقال العلامة وهو يهز كتفيه: «وهو كذلك. افعل ما بدا لك إذَن.»

وخرجوا. وكانت هالة رمادية تستقبلهم في الخارج. وتنفَّس ميجيل بعمق عدة مرات، وشعر بتحسن. وسار فرانسسكو وميلانيز وروبين في المقدمة، يتبعهم ميجيل والعلامة. كان ثمة متسكعون في شارع جراو، معظمهم خادمات في يوم عطلتهن. وكان رجال متجهمو الطلعة ذوو شعر طويل يتبعونهن ويرمقونهن بنظرات شرهة. كانوا يضحكون مبينين عن أسنان ذهبية. ولم يأبه الصقور بهذا، بل ساروا بخطًى واسعة وقد أخذ الحماس يدبُّ فيهم ببطء.

قال العلامة: «أتشعر بتحسُّن؟»

فرد ميجيل: «أجل. لقد أفادني الهواء الطلق.»

واستداروا عند ناصية شارع برادو. وساروا موزَّعين على هيئة فصيل، في نفس الصف، تحت أشجار المطاط، على بلاط الرصيف الذي تخترق سطحه من مكان لآخر جذور شجرة ضخمة كأنها خطاطيف عملاقة. وانعطفوا إلى شارع «دياجونال»، فمروا بفتاتَين. وانحنى روبين لهما بكل احترام.

قالتا معًا: «أهلًا يا روبين.»

فقلدهما توبياس وهو ينغم صوته: «أهلًا بالأمير روبين.»

وانتهى شارع دياجونال إلى منحنًى يتفرع إلى اتجاهين: الأول يفضي إلى شارع «ماليكون» المرصوف البراق، والثاني يتبع منحدرًا يؤدي إلى البحر. وكان يطلق على الطريق الثاني «مهبط المستحمِّين»، وهو يلمع من آثار عجلات السيارات وأقدام المستحمين عبر أعوام عديدة.

وصاح ميلانيز وهو يبدأ في الجري: «دعونا نطلق العنان لأنفسنا أيها الأبطال.» وتبعه الآخرون.

وجرَوا ضد الريح والضباب الخفيف الذي كان يأتي من ناحية البحر، وقد سيطرت عليهم دوامات عنيفة من المشاعر. كان الهواء يتسرب خلال آذانهم وأفواههم وأنوفهم إلى الرئة؛ فينشر في أبدانهم إحساسًا بالراحة وصفاء الذهن؛ إذ الطريق يزداد انحدارًا، وفجأة لم تَعُد أقدامهم تطيع إلا قوة غامضة تأتي فيما يبدو من بطن الأرض. وانطلق الصقور يجرون صارخين وأذرعتهم تدور كالمراوح، ونكهة مالحة على ألسنتهم، حتى بلغوا المنطقة الدائرية التي تطل على كبائن الاستحمام. كان البحر يختفي بعد حوالي خمسين مترًا من

الشاطئ، في سحابة كثيفة تتأهب فيما يبدو للهجوم على الربوات التي كانت تنتشر على طول الخليج.

قال فرانسسكو: «فلنعُد. إني متجمِّد.»

وعلى حافة المنطقة، كان هناك حاجز ملطخ هنا وهناك بالطحالب الفطرية. وكان ثمة فتحة فيه تشير إلى مبدأ سلم يكاد يكون أفقيًّا يفضي إلى الشاطئ. وشاهد الصقور من علٍ شريطًا قصيرًا من المياه الصافية، سطحها لا يقطعه شيء، تُرغي حيث يَلحق الضباب بزبَد الأمواج.

قال روبين: «سأعود لو استسلم ذاك.»

ورد ميجيل: «من يتحدث عن الاستسلام. من تظنك تكون؟»

وهبط روبين السلم ثلاثًا ثلاثًا، وهو يفك أزرار قميصه.

وهتف العلامة: «روبين! أأنت مجنون؟ ارجع!»

بَيدَ أن ميجيل والآخرين هبطوا أيضًا، وتبِعهم العلامة.

ومِن شرفة المبنى الطويل العريض المقام قبالة الرابية، والذي كان يضمُّ غرف خلع الملابس، حتى حافة البحر الملتوية، كانت هناك مساحة من الصخور الملساء كان الناس يستخدمونها في الصيف للتشمس. وكان الشاطئ عند ذاك يضجُّ بالحياة، من الصباح الباكر حتى الغروب. أما الآن فالمياه تغمر المنحنى، ولا توجد أي مظلات ملونة، ولا فتيات لدِنات ذوات أجسام برونزية، ولا صرخات ميلودرامية للأطفال والنساء حين تنجح إحدى الموجات في رشهم بمياهها قبل أن تنحسر فوق الصخور والحصباء المتوجعة. ولم تكن هناك بقعة من الشاطئ إلا وقد غمرها الماء الذي ارتفع حتى الفراغ الضيِّق تحت الأعمدة التي تحمل البناء. ومع ارتفاع المد، كان من الصعب معرفة مكان السلالم الخشبية والدعائم الأسمنتية التي كانت كلها مغطاة بالتجمعات الجيرية وبالأعشاب.

قال روبين: «لا يمكن رؤية منطقة التيار. ماذا سنفعل؟»

كانوا في الشرفة العليا اليسرى، فوق القسم المُخصص للنساء. كانت الجِدية ترتسم على وجوههم.

وقال العلامة: «انتظر إلى غدٍ. سيكون الجو صافيًا عند الظهيرة. وعندئذٍ يمكننا تحديد الفائز.»

فقال ميلانيز: «الآن وقد قطعنا جميعًا كل هذا الشوط، فليكن الآن. يمكنهما تحديد الفائز بنفسيهما.»

قال روبين: «أنا موافق. وأنت؟»

فرد ميجيل: «حسنًا.»

وحين خلعا ملابسهما، ضحك توبياس على العروق التي كانت تنتشر على معِدة ميجيل الصقيلة. وهبطا. كان خشب درجات السلم زلجًا وناعمًا بفعل نحر المياه فيه لعدة أشهر. وشعر ميجيل وهو يمسك بالدرابزين الحديدي حتى لا يسقط بقشَعريرة تسري من أخمص قدميه إلى عقله. كان قد حسب أن الضباب والبرد هما بطريقةٍ ما في صالحه، وأن النجاح لن يعتمد بدرجة كبيرة على المهارة قدر اعتماده على التحمُّل، وكان جِلد روبين قد تحوَّل إلى اللون الأرجواني بالفعل وقد تأثَّر بشدة البرد. وبعد درجة أخرى من السُّلم، انحنى جسد روبين المتناسق إلى الأمام. وانتظر بتوتر انحسار الماء ووصول الموجة التالية، التي جاءت مستوية خفيفة تعلوها هامَة من الزَّبد. وحين أصبحت قمة الموجة على بعد مترين من السلم قفز روبين. وانبسط ذراعاه كالسهام، وشعره يطفو مع القفزة، وشقَّ جسده الهواء وسقط دون أن يلتوي، ورأسه لا يميل، وركبتاه مستقيمتان. ودخل إلى الزَّبد وهو لا يكاد يهوي في الماء، واستفاد من الجزر فانساب سريعًا إلى الأمام وذراعاه تظهران وتختفيان في احتدامٍ من الفقاعات، بينما تُخلِّف ساقاه خيطًا رتيبًا ثائرًا. وهبط ميجيل بدوره درجة وانتظر الموجة التالية. كان يعرف أن القاع هناك ضحل، وأن عليه أن يغطس كلوح الخشب، بقوة وصرامة، دون أن يتحرك، وإلا فسيصطدم بالصخور. وأغمض عينيه وقفز، ورغم أنه لم يلمس القاع، فقد تسلَّخ جسده من الجبهة حتى الركبتين، وكان يشعر باللذعة وهو يسبح بكل قوته كيما يُعيد إلى أطرافه الدفء الذي جردته منه المياه. وفي تلك البقعة من شاطئ ميرا فلوريس كانت الأمواج والتيارات المضادة تلتقي فتُثير دوامات متصارعة، وكان الصيف الماضي بعيدًا إلى درجة نسِي ميجيل معها كيف يركب المياه دون بذل مجهود كبير. لقد نسِي أنه يجب أن يترك جسده رخوًا ويترك العنان لنفسه مع الجَزر مستسلمًا، ولا يسبح إلا حين ترتفع الموجة ويكون على ذروتها، على ذلك الجانب الذي فيه الزَّبد، وهو الجانب الذي يجري فوق قمة المياه. لقد نسِي أنه من الأفضل أن يتحمل في صبر وبشيء من المقاومة أول لقاء مع البحر عند انحساره من الشاطئ؛ إذ إنه يعصف بالأطراف ويجعل المياه تنساب من العيون والأفواه، وألا يقاوم، أن يصبح كالفلينة، وأن يعُبَّ من الهواء، لا أكثر من ذلك، كلما تأتي إليه موجة غير قوية، أو من خلال قاع الموجة إذا كانت قمتها المتكسرة قريبة منه، وأن يتعلق بصخرة وينتظر في صبر مرورها برعدها المدوي، ثم يشقُّ طريقه بحدَّة ويظل في تقدمه إلى الأمام، في تستُّر، بذراعيه، إلى أن تصادفه العقبة التالية، ثم يجعل جسده رخوًا مرة أخرى ولا يصارع التيار، بل يتحرك في بطءٍ وبثبات

في دائرة حلزونية متَّسعة ثم يهرب فجأة في اللحظة المناسبة في دفقة واحدة. وكان سطح المياه بعد ذلك هادئًا بطريقة غير متوقعة، وحركته ضئيلة، وكانت المياه صافية مستوية، حتى كان بوسع المرء أن يرى الصخور السوداء في قاع المياه.

وبعد أن شقَّ ميجيل طريقه خلال المياه الثائرة، توقَّف متهالك القوى وعبَّ من الهواء. وشاهد روبين ليس بعيدًا عنه يتطلع إليه. كان شعره ينسدل في خصلات على جبينه، وأسنانه بادية للعيان.

– هيا بنا.

– وهو كذلك.

وبعد أن سبح ميجيل عدة لحظات، شعر بالبرودة، التي كانت قد فارقته مؤقتًا، تعود إليه، فسارع من رفساته؛ لأن السيقان، وبخاصة بطن الساق، هي أشد ما تؤثِّر فيها المياه، فتصيبها بالخدَر أولًا ثم تُيبسها. كان يسبح ووجهه في الماء، وكلما خرجت ذراعه اليمنى من المياه، يدير رأسه كي يتخلَّص من أنفاسه المحتبسة ويستنشق هواءً جديدًا، ثم يغمس جبينه وذقنه في الحال وبخفة حتى لا تُعيق تقدُّمه إلى الأمام ويخلُق بدلًا من ذلك حدًّا يشقُّ به المياه حتى يسهُل عليه المرور من وسطها. وكان عند كل ضربة ينظر بعين واحدة إلى روبين، الذي كان لا يكاد يبذل جهدًا، يشقُّ طريقه كالنورس في يُسر وخفة. وحاول ميجيل أن ينسى روبين والبحر ومنطقة التيار (وهي التي ما تزال على مبعدة؛ لأن الماء كان صافيًا وهادئًا ولا تعبره إلا موجات صغيرة وقتية). كان يريد أن يبقى وجه فلورا فحسب في مُخيلته، والزغب على ذراعيها الذي يلتمع في الأيام المشمسة كأنه غابة من الخيوط الذهبية، بَيدَ أنه لم ينجح في أن يتبع وجه الفتاة صورة أخرى، صورة متخفية مسيطرة مرعدة، تسقط على فلورا فتخفيها، صورة جبل من المياه الثائرة، لا حاجز المياه بالتحديد (كانوا قد وصلوا إلى حاجز المياه مرة منذ صيفين، بأمواجه الهادرة وزبَده الداكن الاخضرار، فهناك تنتهي الصخور ويبدأ الطين الذي تجلبه الأمواج إلى السطح وتحركه بأكوام من الطحالب المائية مما يعكر المياه)، بل بحر في حدِّ ذاته تهزه العواصف الداخلية، وترتفع فيه أمواج هائلة بوسعها أن ترفع سفينة بحالها وتقلبها بسهولة وسرعة؛ فتُبعثر الركاب وقوارب النجاة والقلوع والأشرعة وأطواق الإنقاذ والبحارة والأعلام.

وتوقَّف عن السباحة، وغطس جسده حتى أصبح في وضع رأسي. ورفع رأسه فرأى روبين يبتعد. وخطر له أن ينادي عليه بحُجةٍ ما، أن يصيح به مثلًا: «لماذا لا نستريح برهة؟» ولكنه أحجم عن ذلك. وبدأ كل البرد في جسده وقد تركَّز في باطن ساقيه، وشعر

بالخدَر في عضلاته، وجلده يتقلَّص ودقات قلبه تتسارع. وحرَّك ساقَيه في ضعف. كان في وسط مياه قاتمة، يحوطه الضباب. وحاول أن يتبين الشاطئ، أو ظلال الرابية على الأقل، بَيدَ أن الضباب الذي كان يبدو وكأنه ينقشع كان مخاتلًا، وليس شفافًا بالمرة. لم يرَ إلا مساحة قصيرة من سطح البحر، ضاربة إلى السواد، خضراء، والسحب التي تكتنف كل شيء تستوي مع المياه. وعند ذلك شعر بالخوف. وعادت إلى ذاكرته ما شربه من البيرة، وخطر في باله: «أعتقد أن ذلك هو ما أصابني بالضعف.» وفجأة، بدا كما لو أن ذراعيه وساقيه قد اختفت. وقرر العودة أدراجه، ولكن بعد بضع ضربات في اتجاه الشاطئ، استدار وسبح بأسهل ما تكون السباحة. وجال في خاطره: «لن أتمكَّن من بلوغ الشاطئ بمفردي. من الأفضل أن أكون قريبًا من روبين. لو راحت مني قواي فسوف أخبره أنه قد فاز ونعود معًا.» وكان الآن يسبح بغير اكتراث، رافعًا رأسه، مبتلعًا الماء، متيبِّس الذراع، مثبتًا عينيه في الشكل الهلامي أمامه.

وبُعث النشاط والطاقة الراحة في ساقيه، واستعاد جسده بعض الدفء. وتقلَّصت المسافة بينه وبين روبين وأشاع ذلك الاطمئنان في نفسه. وبعد فترة قصيرة لحِق به، ومدَّ ذراعه فلمس قدم روبين. وتوقف الآخر في الحال. كانت عينا روبين شديدتَي الاحمرار، وفمه مفتوحًا.

قال ميجيل: «أعتقد أننا قد انحرفنا عن المسار. يبدو أننا نسبح جانبيًا تجاه الشاطئ.»

كانت أسنانه تصطك، ولكن صوته كان ثابتًا. ونظر روبين فيما حوله. وراقبه ميجيل في توتر.

قال روبين: «لم يعُد في الإمكان رؤية الشاطئ.»

قال ميجيل: «ليس الآن. هناك ضباب كثيف.»

قال روبين: «إننا لم نبتعد كثيرًا. انظر هذه هي منطقة التيار.»

وفي الواقع، كانت بعض الموجات تصل إليهما مكللة بالزَّبد الذي يذوب ثم يتكون مرة أخرى. ونظرَا إليها في صمت.

قال ميجيل آخر الأمر: «إذَن فنحن قريبان من منطقة التيار».

– «بالتأكيد. لقد كنا نسبح بسرعة».

– لم أرَ من قبل مثل هذا الضباب الكثيف.

وتساءل روبين: «أأنت متعب جدًّا؟»

– أنا؟ أنت مجنون. هيا بنا.

وأسِف في الحال أنه قال ذلك، ولكن كان الأمر قد أفلت من يده؛ فقد قال روبين: «وهو كذلك، هيا بنا.»

وأحصى عشرين ضربة قبل أن يقرر أنه لم يَعُد بوسعه الاستمرار. كان لا يكاد يتقدم، وساقه اليمنى شبه مشلولة من البرد، وذراعاه يابستان وثقيلتان. وصاح وهو يلهث: «روبين!» بَيدَ أن الآخر كان يواصل السباحة. «روبين، روبين!» واستدار وبدأ يسبح تجاه الشاطئ، أو كان بالأحرى يضرب الماء في يأس، وفجأة بدأ يصلي لله أن ينقذه، ولسوف يكون حميدًا في المستقبل، وسوف يطيع أبوَيه، ولن يتغيب عن قداس الأحد، وعندها تذكَّر أنه قد اعترف للصقور: «إني لا أذهب إلى الكنيسة إلا لرؤية الفتيات.» وسيطرت عليه فكرة أن الله سوف يعاقبه بإغراقه في هذه المياه الثائرة التي يصارعها في يأس والتي ينتظره في أعماقها موتٌ رهيبٌ، ومن ورائه على الأرجح، جهنم ذاتها. وفي تلك المحنة التي كان يمرُّ بها، طافت في ذهنه عبارة كان كثيرًا ما يستخدمها الأب ألبرتو في حصة الدين بالمدرسة، وهي أن الرحمة الإلهية لا حدود لها، وعندما كان يضرب المياه بذراعيه حرك شفتيه ودعا الله أن يعطف عليه، فهو في مقتبل العمر، وأقسم أن يصبح قسًّا لو أنه نجا. ولكن بعد لحظة صحح ما انتواه بسرعة ووعد بدلًا من أن يصير قسًّا أن يقدِّم القرابين وأشياء أخرى، ويعطي الصدقات. ثم تبيَّن أن التردد والمفاصلة في مثل هذا الوقت الحاسم يمكن أن يكونا مهلكَين؛ وسمع فجأة بالقرب منه، صيحات قوية صادرة عن روبين، فأدار رأسه فوجده على بُعد عشرة أمتار منه، ووجهه نصف غاطس في الماء، وهو يلوِّح بأحد ذراعَيه مستغيثًا:

– «ميجيل، صديقي ميجيل، تعالَ، إني أغرق. لا تذهب!»

وبقِي ميجيل متصلبًا برهة، متحيرًا، ثم بدا كما لو أن ورطة روبين قد خلَّصته من ورطته؛ إذ شعر بشجاعته وقوته تعودان إليه، واسترخى الانقباض الذي كان يشعر به في ساقيه.

وقال روبين بصوت كالفحيح: «إنَّ عندي تشنجًا معويًّا. لا أستطيع الاستمرار يا ميجيل. أنقذني. مهما كان الأمر، لا تتركني يا رفيقي.»

وطفا ميجيل تجاه روبين وكان على وشك أن يمسك به حين تذكر أن الأشخاص الغارقين ينحون دائمًا إلى التشبث بمنقذيهم كالعلقة فيغرقونهم معهم؛ ولذلك أبقى مسافة بينهما. بَيدَ أن الصرخات أخافته وتبيَّن أنه إذا غرق روبين؛ فإنه لن يصل إلى الشاطئ هو الآخر، ولذلك عاد إلى روبين وحين أصبح على مبعدة مترين فقط من روبين الذي تحول إلى كتلة متقلصة تقبُّ وتغطس، صاح: «لا تتحرك يا روبين. سوف أسحبك من رأسك، ولكن لا تحاول أن تتشبث بي. إذا تشبثت بي فسوف نغرق كلانا. روبين، عليك ألا تتحرك أيها

الرفيق. سأسحبك من رأسك، ولكن عليك ألا تلمسني.» وأبقى مسافة آمنة بينهما، ومدَّ يده حتى أمسكت بشعر روبين. وبدأ يسبح بذراعه الحرة، باذلًا كل ما في وسعه ليساعد ساقيه على المضي قدمًا. وكان التقدم بطيئًا ومؤلمًا. وركَّز كل جهوده فيما يفعل، وكان لا يكاد يسمع أنين روبين الرتيب، أو صيحاته المفاجئة الرهيبة: «إني سأموت، أنقذني يا ميجيل!» أو الغثيان الذي كان يهاجمه. كان منهوك القوى حين توقَّف. كان يسند روبين بإحدى يديه، بينما يضرب صفحة الماء في حركة دائرية باليد الأخرى. وتنفَّس بعمق من فمه. وكان وجه روبين متقلِّصًا من الألم، وشفتاه ملتويتَين على نحو غريب.

وقال ميجيل لاهثًا: «أيها الصديق روبين، لم يبقَ إلا مسافة قصيرة. حاول معها. أجبني يا روبين. ازعق. لا تبقَ هكذا».

ولطمه في حدَّة، ففتح روبين عينيه، وحرك رأسه في ضعف.

وكرر ميجيل: «ازعق أيها الصديق. حاول أن تحرِّك نفسك. سوف أدلِّك معدتك. لسنا بعيدَين الآن. لا تستسلم».

وأدخل يده تحت الماء وتحسس جمود عضلات معدة روبين ينتشر على بطنه كلها. ودلَّكها عدة مرات، ببطءٍ في البداية ثم بقوة؛ وصاح روبين: «لا أريد أن أموت يا ميجيل. أنقذني!»

وبدأ ميجيل يسبح مرة ثانية، وهو يجرُّ روبين من ذقنه هذه المرة. وكلما صادفتهما موجة من الموجات، كان روبين يشرق بالماء، فيصيح به ميجيل أن يبصقه. واستمر يسبح دون أن يستريح لحظة وهو يغلق عينيه أحيانًا، وقد ارتفعت روحه المعنوية لأن نوعًا من الثقة انبثق في قلبه؛ شعور دافئ فخور مثير للحماس يحميه من البرد ومن التعب. وكشطت إحدى الصخور قدمه فصرخ بصوت مرتفع وأسرع في سباحته. وبعد برهة كان بوسعه أن يقف قائمًا، ومدَّ ذراعه ليسند روبين. وبقِي وقتًا طويلًا وهو يمسك به إلى جواره وهو يشعر برأسه يميل على إحدى كتفيه ثم ساعد روبين على التحرك وفرد كتفيه، وسند مقدم ذراعيه وجعله يحرك ركبتيه. ودلَّك معدته حتى بدأ الجمود يذوب. وكان روبين قد توقَّف عن الصياح ويبذل كل ما في وسعه كي يستطيع التحرُّك من جديد وهو يدلِّك نفسه بيديه.

– أحسن؟

– أجل أيها الرفيق. إني بخير. هيا بنا.

وغمرهما فرحٌ طاغٍ وهما يشقَّان طريقهما فوق الصخور، ينحنيان إلى الأمام ضد التيار ولا يأبهان للطفيلات البحرية. وسرعان ما بدت لهما أقواس الروابي ومبنى

الاستحمام، وأخيرًا، بالقرب من حافة المياه الآن، الصقور وهم يقفون في منطقة النساء يتطلعون.

قال روبين: «اسمع.»

– ماذا؟

– لا تقُل لهم أي شيء. أرجوك لا تقُل لهم إنني كنت أصرخ طلبًا للمساعدة. لقد كنا دائمًا صديقَين عزيزَين يا ميجيل. لا تفعل ذلك بي.

فقال ميجيل: «أتظن أنني جبان؟ لن أقول شيئًا، فلا تقلق.»

وخرجا من البحر يرتعشان. وجلسا عند نهاية السلم، بينما الصقور يصخبون من حولهما.

قال توبياس: «لقد كنا نتأهب لإرسال التعازي إلى أسرتَيكما.»

وقال العلامة: «لقد قضيتما ما يزيد على الساعة. قولا لنا، كيف كان الحال؟»

وشرح روبين الأمر وهو يتحدث في ثبات ويجفف جسده بقميصه: «لا شيء على الإطلاق. لقد وصلنا إلى منطقة التيار ثم عدنا أدراجنا. هكذا يتصرف الصقور. لقد غلبني ميجيل. غلبني بفارق لا يزيد على الشبر. لو كنا في حمام سباحة لكنت بالطبع قد قهرته.»

وانهال سيلٌ من ربتات التهنئة على كتفَي ميجيل الذي كان قد ارتدى ملابسه دون أن يجفف جسده.

قال له ميلانيز: «ها. لقد بلغت مرتبة الرجولة الحقَّة.»

ولم يردَّ ميجيل. وابتسم وهو يفكِّر أنه سيذهب في نفس هذه الأمسية إلى منتزه سالازار. وستعرف مدينة ميرفلوريس، بفضل ميلانيز الثرثار، بالاختبارات البطولية التي نجح فيها، وستكون فلورا في انتظاره بارقة العينين. كان ينفتح أمامه مستقبل ذهبي.

الابن والأم

تأليف: رينالدو أريناس
(كوبا)

رينالدو أريناس (١٩٤٣م)
وُلد في مقاطعة الشرق بكوبا، وتلقَّى دراسته في مدرسة التخطيط ثم في كلية الآداب جامعة هافانا. وعمل بعد تخرجه في معهد الإصلاح الزراعي وفي المكتبة المتنقلة. وقد نشر معظم قصصه القصيرة في مجلتَي «الاتحاد» و«بيت الأمريكتين». ونالت قصصه شهرة كبيرة في بلاده. وقد كتب عدة روايات أيضًا، أهمها روايته المعنونة «عالم الهذيان». وتمتاز قصصه بغلَبَة الرمز فيها، إلى جانب الحس الأخلاقي الفياض والغوص في نفوس الشخصيات.
وتُعتبر القصة التي نقدمها هنا نموذجًا جيدًا للقصة القصيرة الفنية، التي يبين فيها البناء المحكم والاستخدام البارع للرموز، والتي تتضافر كل أجزائها في الوصول إلى أثر عام ينقل الإحساس الذي يرغب الكاتب في إيصاله إلى القارئ.

* * *

كانت الأم تنتقل بين غرفة الطعام والمطبخ.
كانت الأم تمشي وهي تقفز قفزات صغيرة كما يفعل الفأر وقد بلَّله الماء.

كانت الأم جالسة في الردهة وهي تتمايل في مقعدها جيئة وذهابًا.

كانت الأم تنظر عبر النافذة.

كانت يدا الأم مليئتَين ببقعٍ صغيرة من النمش. مع أنها لم تكن عجوزًا.

وتأوهت الأم.

واختفت الأم في المطبخ؛ حيث أخذت تُحادث نفسها.

وقفت الأم على قدمَيها ومشت إلى المطبخ.

كانت الأم قد ماتت.

هبط الابن من الغرفة (الغرفة الوحيدة التي كان يشتمل عليها الطابق الأعلى، كانت أشبه بقفص ضخم للطيور) وهو يحمل كتابًا في يده. وجلس. ولكنه لم يشرَع في القراءة.

وقالت الأم وقد حضرت من المطبخ: «سيكون الطعام جاهزًا حالًا.»

وفتح الابن الكتاب.

كانت الردهة واسعة. وعبر ستائر النافذة المعدنية التي احتلت الجزء الأعلى كله من الحائط، تسرب الهواء الذي كاد يكون ريحًا؛ وكان يهزُّ الزجاج هزًّا ويدفع أحيانًا جانبي النافذة.

قالت الأم وهي تغلق النافذة: «عليك أن تُقلل من القراءة. أو لا تقرأ على الإطلاق. إن هذا يؤذيك.»

وحمل الابن الكتاب إلى الرفِّ الذي لا يحوي سوى بعض المجلات، ورماه فوقها.

وكانت الأم في هذه اللحظة تنتقل بين غرفة الطعام والمطبخ، دون أن تتوقف في مكان معين.

وكان يراها تدخل وتخرج، بطريقة تبعث على الدوار. تدخل، وتخرج ... حتى بلغت السرعة حدًّا تخيل معه أنها ثابتة أمام عينيه. وعند ذلك توجَّه الابن إلى المقعد الذي يواجه المقعد الأول بجوار النافذة، وجلس. ربما تكون الساعة قد بلغت الخامسة، ويجوز أن تكون قد تعدَّت ذلك. ربما السادسة أو السادسة إلا خمس دقائق. وهذا يعني أن الزائر سيصل خلال خمس دقائق. وهو لم يذكُر بعد شيئًا من ذلك الأمر إلى الأم. وهو على وشك الحضور في أي لحظة. واقترب من عرائش الستائر العالية وشاهد ضوء الشمس يتراوح على أوراق شجرة اللوز التي عرَّتها العاصفة من أوراقها. كان الموضوع يتلخص في أنه ينتظر صديقًا. وهو، الذي لم ينتظر أحدًا أبدًا؛ لعدم وجود مكان.

– كيف يمكن ألا يكون لديك مكان؟

– إني أعيش مع أمي.

– سأكون عندك في الساعة السادسة.

وأعطاه العنوان، وأرقام الحافلات التي تذهب إلى تلك المنطقة.

وتركَّزت الآن أصوات العصافير وشقشقتها بين أوراق الشجرة المتراكمة. ونظرًا لالتفاته إلى تلك الأصوات، لم يسمع صوت أمه التي كانت تدعوه من المطبخ لكي يتناول طعامه، واضطره تكرار الدعوة إلى إجابتها.

قالت الأم وقد وصلت إلى الردهة ووقفت إلى جواره:

– الطعام جاهز على المائدة.

وخطر بباله أن لا حاجة إلى قول كل تلك الكلمات؛ إذ كان بوسعها أن تقول تعالَ لتأكل، أو لقد جهز الطعام، أو لقد جهز، أو جهز.

كانت المائدة قد أعدَّت للابن. وأخذ هذا يأكل في بطء. وجلست الأم هي الأخرى إلى المائدة، ولكنها لم تكن تأكل. كانت تتحدث.

– لقد عادت جميع ملابسك من المكواة. ينقصها فقط البنطلون البني ... يجب أن أذهب للسؤال عنه.

وخطر ببال الابن: إنه الآن أمام الباب، وحتى الآن لم أذكر لها أي شيء ... سيصل الآن، ستذهب هي لفتح الباب، لأني آكل. إنه يصل في هذه اللحظة.

ووقفت الأم وتوجَّهت إلى الحوض لغسل الأطباق التي انتهى الابن من الأكل فيها.

وجال في ذهن الابن أنها كانت تستطيع أن تنتظر حتى ينتهي من طعامه ثم تغسل الأطباق، ولكنه لم يقُل لها شيئًا. وشاهدها تمشي، وهي تقفز قفزات صغيرة، كما يفعل الفأر وقد بلَّله الماء.

ولكنه انتهى من طعامه ولم يظهر الزائر المنتظر، وترتَّب على ذلك أن الوقت المتاح له لكي يخبر أمه بالموضوع كان يتناقص باستمرار. وتوجَّه إلى الردهة وفتح الراديو؛ لكنه لم يعلن عن الوقت وظل يذيع الموسيقى. موسيقى بلا غناء، وكان ذلك من أشد الأشياء التي تضايق الأم لأنه «لا يقول شيئًا»؛ مع أنه كان يحبه لنفس ذلك السبب. وأغلق الراديو واقترب من الباب دون أن يسترق النظر إلى الشارع. وكانت الأم في هذه اللحظة جالسة في الردهة تتمايل في مقعدها جيئة وذهابًا. وبدت كما لو كانت تغني. وذهب الابن إلى المقعد الذي كان في مواجهة الأم، وأسند يده إلى ذراع المقعد، وجلس.

كان الابن والأم في مواجهة أحدهما الآخر، يجلسان على مقعدَين متماثلَين، إلى جوار النافذة ذات الستائر والزجاج؛ حيث تبين من ورائها البسطة التي فرشتها أوراق شجرة

اللوز المكوَّمة التي لا تكفُّ العصافير من الزقزقة عليها. وكانت الشمس الغاربة في تلك اللحظات تتسلل عبر الستائر وتسقط على الأم والابن على شكل أهداب صفراء لا تحرق ولا تؤذي. ووصل إلى أسماعهما من المطبخ صوت الخرطوم المركَّب على صنبور الحوض والذي ينفث منه الماء. وانبعث في نفس الابن — وكان يشعر أن الزائر قد اقترب في هذه اللحظة — انتعاشٌ لا عهد له به من قبل، وحاول أن يتحدث مع الأم في ذلك الموضوع، ولكنها رفعت عنقها في تلك اللحظة دون أن تنهض من على المقعد.

كانت الأم تنظر عبر النافذة ... وشاهد عنق الأم في تطاوُله، شاهده يتشمم الستائر، ويستمر في طريقه. وشاهده يصطدم بالسقف ويحطمه. واستمر العنق في النمو ... وعندئذٍ انفتحت إحدى شراعات النافذة بعنف بقوة الرياح واصطدمت بأنف الأم. وضحكت الأم بصوت عالٍ.

وعملت ضحكة الأم على إغلاق شرَّاعة النافذة، ضحكة الأم التي دوت في الردهة الضخمة وغطَّت على صوت خرطوم حوض المطبخ، وربما كانت تغطي في هذه اللحظة على صوت أي طرقة على الباب، ضحكة الأم التي أفزعت كل العصافير التي حطَّت على أوراق الشجرة؛ فاختفت هاربة وهي تصيح وتزقزق.

وتوقفت الأم عن الضحك.

قال: ماذا حدث؟

ونظر عبر النافذة، ثم خفض بصره نحو أصابع الأم وقد وضعتها فوق ركبتيها. وكانت يدا الأم مليئتَين ببقع صغيرة من النمش؛ رغم أنها لم تكن عجوزًا.

– لا شيء.

ونظرت إلى أشعة الشمس وقد بدأت تتضاءل.

وكان الوقت يمرُّ، وفي الشارع، لم تعُد تمر أية عربة. ولم تَعُد تُسمع أية ضوضاء. وجال بخاطر الابن أن اللحظة قد حانت (اللحظة مرة أخرى)، وتأهب للكلام. ولكن انتابت الأم الآن حركات مسرحية، فقد وقفت فوق المقعد الذي أخذ يهتز تحتها، بينما تغير لون رأسها وهو يتمايل؛ حتى لم تَعُد الردهة كلها في عينيه سوى إعصار مضيء بدا له شيئًا محزنًا وكئيبًا.

وجلست الأم مرة ثانية، وتأوَّهت.

وحالًا بدأ الليل يُسدِل أستاره، كما يحدث عادة في تلك المناطق التي لا يكاد يبين فيها تغير الفصول. وكسر حدَّة الصمت عدد من الأصوات الجديدة، كالبحر الذي يشرع فجأة في

التموج، وحيث تتحول الكلمات حين ينطق بها إلى رموز بالغة الغرابة؛ لأن الظلمة تُسدل أستارها. ولكن لم تكن الدنيا ليلًا بعد.

وخفتت الضوضاء، كما لو كانت محاولة البحر قد فشلت. وتخلَّف على النافذة نوع من الهالة المائلة إلى اللون الذهبي ثم أخذت تختفي شيئًا فشيئًا وهي تتقاطع مع طيف الأم والابن وتجمع بينهما في تشابهٍ واحد.

ورفع الابن رأسه ونظر إلى الستائر مرة أخرى بحركة تدل على قلق داهم.

ونهضت الأم.

قال: ماما.

وتوجَّه إليها ليسندها، ولكنه شعر بالعرق يبلل أصابعه لدرجة تكونت معها بحيرة من الماء بالقرب من مقعده، فلم يمدَّ يده إلى الأم حتى لا يبللها. وجال بخاطره، إذ رأى يدَيه كأنما هما نبع من الماء، أن قدَرًا هائلًا أو ربما رائعًا يميزه عن باقي المخلوقات وحتى عن بقية الأشياء.

وكانت الأم تسير في أحد جوانب الردهة. وكان يبدو في بعض الأحيان كما لو كانت تسير على الهواء، أو على قدم واحدة. وقد رآها أخيرًا تختفي في المطبخ؛ حيث أخذت تُحادث نفسها.

وكان همس الأم يصل إلى الردهة، كما لو كان حفلًا موسيقيًّا ينبجس من سوق مزدحمة بالناس. وشعر الابن بالخوف عند سماع صوتها، خوف أشد مما أحس به في أي وقت حتى الآن. وتدفق العرق مرة أخرى من يديه وسقطت قطراته على نفس المكان حيث تكوَّمت البحيرة. وكان همس الأم يرتفع حتى تحول إلى همسٍ جهنمي.

وحينئذٍ سُمعت أول دقة على الباب، كأنما هي آتية من حيث لا زمن.

انتهى الانتظار. ها هو. ووقف الابن. وتحوَّلت موجات حديث الأم من المطبخ إلى انبعاثات أسيفة لا يُمكن احتمالها.

حينئذٍ سُمعت ثاني دقة، بقوة غطَّت على الضجة الجهنمية التي تصدرها تلك البهيمة في المطبخ.

– «من قال البهيمة؟»

أجل، البهيمة التي تكبر الآن وتتطاول بينما أنت واقف متردد. البهيمة المغبرة الملوثة بالشحم (من جراء سناج أوعية المطبخ ودهنها) التي كانت تلهث وتنمو بين أصوات المواء … غير أن الابن سار نحو الباب، فأخذت البهيمة الكبيرة تتضاءل في الحجم، وقفزت تُضارب السقف مرة أخرى عند قدمَي الابن، متوسلة بينما يتطاير الشرر من عينيها.

ولكن هذا ازداد اقترابًا من الباب، وأمسك بالمقبض.

– «أي مقبض؟»

لم يكن بذلك الباب أي نوع من المقابض على الإطلاق.

ها أنت قد أمسكت بالمقبض ولسوف تفتح.

ولكن الهاتف الآخر وصل في هذه اللحظة، ونظر الابن إلى الأم، ضئيلة، غارقة في بحيرة العرق الذي تساقَط من يديه. وتردد. وانتابه الخوف من أن يكسر الاتفاق.

– «أي اتفاق؟ من يتحدث عن اتفاقات؟»

الاتفاق الذي عقدتَه مع أمك. الاتفاق الذي حافظتَ عليه طوال حياتك، وينتابك الآن الشك فيه ... «ابني ليس له أصدقاء»، «ابني لا يستقبل أحدًا في المنزل»، «ابني ...» الاتفاق الذي تخرقه دائمًا، حتى لو كان ذلك عن طريق التفكير ليس إلا.

وبرزت الأم مرة أخرى، هائلة، حين ترك الابن مقبض الباب. واستمرت تنمو حتى استردت حجمها البهيمي. وبجناح من جناحَيها الهائلَين، ضمَّت ابنها إلى صدرها المليء بالحشرات.

– «الحشرات!»

وعندئذٍ رنَّت الدقة الرابعة، وخرج الابن وجِلًا يجري، ولجأ إلى الحجرة الشبيهة بقفص الطيور في الطابق الأعلى. وفتح ستائر الحجرة قليلًا ونظر إلى الباب الخارجي في وجَل.

وهناك كان الصديق، حقيقيًّا، يدق الباب دون كلل. يدقُّ وينتظر. يدقُّ بخبطات أكيدة. هناك كان الصديق، ينتظر. والأم في الداخل، تلهث كالحصان، وتملأ المنزل جميعه بجناحَيها الهائلَين ... ولم ينقطع الزائر عن الدق. ولقد رأيتَه من أعلى يُصرُّ على موقفه، حتى جال بخاطرك أن تدعوه إليك.

– حقًّا!

آه، ادعُه. تكفي إشارة بسيطة. هل ...؟ هس، كما تفعل الصراصير. ادعُه، ادعُه بحق الإله.

وعاود الزائر إصراره، فدق الباب من جديد. وانتظر.

وبعد ذلك، سار في الاتجاه المخالف. أغلق شباك المدخل الحديدي وخرج إلى الشارع.

وشاهده الابن يبتعد. وبعدها هبط مرة أخرى إلى الردهة. وساد البيت صمت عميق. وسار دون هدًى عبر الردهة الخالية، وطاف دون هدًى خلال جميع الحجرات الخالية، ووصل إلى المطبخ الخالي، وأفرغ في جوفه لترًا من اللبن دون هدًى. وقال كما كان يقول

في الأزمنة الخالية، حينما كان شابًّا وكان ابنًا: «ماما». قال ماما؛ لأنه لم يكن قد تعلَّم أن يقول شيئًا آخر. وتذكَّر كل ما حدث خلال النهار، والانتظار، ووصول الزائر. وتمشَّى وحده عبر ذلك البيت الهائل. وانتابته في لمحة واحدة رؤيةٌ وحدته السابقة، ورؤيةٌ واضحة مضيئة لوحدته المقبلة؛ لدرجة أنه شعر بحاجته إلى تفسيرات ومشورات. ولكن أحدًا لم يجِبه كما هي العادة ... مضى زمن طويل كانت أمه فيه مصدر تصرفاته دون أن تكون معه، تُشعِره بالضآلة، تضطهده، تقضي عليه.

قال: «ماما». وشاهدها تسير في جانب من جوانب السماء على عارضتَين خشبيتَين، دائمًا كما لو كانت في محنة، دائمًا وهي تحاول أن تكسب الوقت لتُضيعه بعد ذلك في الأعمال التافهة ... ولكنها لم تردَّ عليه هي الأخرى هذه المرة، فمنذ وقت طويل، كانت الأم قد ماتت.

وفي الظلمة، سار الشيخ نحو أحد جدران الردهة. قال وهو يضع الوصلة الكهربائية كأنما هو خالق تلقائي جديد: «أضيئوا الأنوار!»

قصبات البوص المجوف

تأليف: جابرييلا ميسترال
(شيلي)

جابرييلا ميسترال (١٨٨٩–١٩٥٧م)

وُلدَت في بلدة فيكونيا بشمال شيلي. وقد استبانت اهتماماتها الأدبية منذ صباها المبكر، وتأثرت بالنهضة الحديثة لأدب اللغة الإسبانية التي قاد لواءها «روبين داريو»، ونشرت أولى قصائدها في المجلة التي كان داريو يصدرها في باريس. عملت ميسترال فترة طويلة في التدريس، وتنقَّلت في مدن كثيرة منها تيموكو مدينة الشاعر بابلو نيرودا الذي التقى بها وهو في السادسة عشرة من عمره وتأثَّر بها وبتشجيعها له. ثم ذاعت شهرة ميسترال في الخارج، وزارت عدة بلدان في أوروبا وأمريكا كأستاذة زائرة للأدب الإسباني. وانتقلت بعد ذلك للعمل قنصلًا لبلادها في الخارج، في نابولي ومدريد وريودي جينيرو. وتكلل عملها بفوزها بجائزة نوبل للآداب في عام ١٩٤٥م. ومن أشهر دواوينها: «وحشة»، «حنان»، «تالا»، «لاجار». يتميز شِعرها بالنزعة الغنائية وقوة العواطف والصور البلاغية. وقد كتبت أيضًا القصص التي تستند إلى أساطير شعبية، ومنها قصتنا هذه.

* * *

حتى في عالم النباتات المسالم، حدثت ذات مرة ثورة اجتماعية. ويُحكى أنه في تلك الحالة، قادت الثورة قصبات البوص المغرورة. وقام سيد من سادات العصيان، الريح، بنشر الدعايات، وفي الحال، لم يَعُد هناك من حديث آخر في المراكز النباتية. وتآخت الغابات البكر مع الحدائق الصغيرة في صراع مشترك من أجل المساواة.

المساواة في أي شيء؟ في سُمك جذوعها، أم في حلاوة ثمارها، أم في حقِّها في الماء النقي؟

كلا. بكل بساطة، المساواة في الطول. فالأمر المثالي هو أن يرفع الجميع رءوسهم على قدم المساواة. فالذرة لم تكن تطمح إلى أن تكون في صلابة شجرة البلوط، بل فحسب أن تحرك شواشيها المشعرة على نفس العلو. ولم تكن شجرة الورد تسعى لأن تكون بنفس فائدة شجرة المطاط، بل أرادت وحسب أن تصل إلى ذلك التاج المرتفع نفسه وتصنع منه وسادة تهدهد فيها ورودها كيما تنام.

الغرور، الغرور! توهيمات العظمة، حتى لو كان ذلك ضد مذهب الطبيعة وتحايلًا على أهدافها. وعبثًا تحدثت بعض الأزهار المتواضعة — كالبنفسجة الخجول والزنبقة المفلطحة الأنف — عن الناموس الإلهي وعن شرور الكبرياء. بَيد أن حديثها بدا مجرد حماقة.

وعمد شاعر هرِم، له لحية كلحية إله البحار، إلى شجب المشروع باسم الجمال، وقال بعض الأمثال الحكيمة عن التوحُّد في كل شيء، وكان يكره ذلك من كل ناحية.

كيف حدث الأمر إذَن؟ كان الناس يتحدثون عن عوامل غريبة تقوم بفعلها. وحامت أرواح الأرض فوق النباتات بحيويتها المريعة، مما نتج عنه أن وقعت معجزة كريهة.

ففي اليوم التالي، استاء أهل الريف حين خرجوا من أكواخهم ليجدوا أعواد البرسيم قد تطاولت حتى أصبحت في ارتفاع الكاتدرائيات، وأن أعواد القمح تموج بالذهب!

كان الأمر جنونًا في جنون. وزأرت الحيوانات في هلع بعد أن ضلوا طريقهم في ظلام المرعى. وصوصوت الطيور في يأس؛ إذ ارتفعت أعشاشها إلى علو لم يُسمع به من قبل. كما أنها لم تَعُد تتمكن من الهبوط بحثًا عن الحبوب؛ فلم تَعُد هناك تربة تسطع عليها الشمس ويغطيها العشب بردائه المتواضع.

وتباطأ الرعاة إلى جوار قطعانهم أمام المراعي المظلمة؛ فقد رفضت ماشيتهم أن تدخل أي مكان بمثل تلك الكثافة؛ إذ خشيت أن يتم ابتلاعها فيه تمامًا.

وفي تلك الأثناء، كانت قصبات البوص تضحك عاليًا من انتصارها، وتضرب أوراقها الثائرة على الذرى الزرقاء لأشجار الكافور.

ويقال إن شهرًا كاملًا مضى والحال هكذا. ثم بدأ التداعي.

وجاء التداعي بهذه الصورة؛ فإن البنفسج، الذي يزدهر في الظل، جفَّ تمامًا حين تعرضت رءوسه الأرجوانية لضوء الشمس الغامر.

وسارع البوص قائلًا: «لا يهم ذلك. إنه لا شيء بالمرة.»

(ولكن، في بلد الأرواح، ساد الحزن على البنفسج.)

أما الزنابق فقد بلغ طولها خمسين قدمًا، فانقصف عودها. وانتثرت رءوسها البيضاء المرمرية في كل الأنحاء كأنها رءوس الملكات.

وقال البوص ما قاله سابقًا. ولكن الأرواح طافت تنوح ثائرة في الغابة.

وفقدت أشجار الليمون، وهي بذلك الارتفاع، كل براعمها بفعل الرياح القوية. فوداعًا إذَن لمحصول الليمون!

ومع ذلك ردَّد البوص مرة أخرى: «لا يهم. إن ثمارها مُرة للغاية.»

وجفَّت أعواد البرسيم، وتقصفت كالخيوط التي تلتهمها النيران.

وتهدلت شواشي أعواد الذرة، ولكن ليس بفعل الخمول. ذلك أن الطول الرهيب الذي كانت عليه الأعواد جعلها تسقط على الأرض، ثقيلة كأنها قضبان حديدية.

أما البطاطس فقد عملت على تقوية سيقانها بأن أخرجت حبات ضعيفة، حجمها أكبر قليلًا من حبوب التفاح.

وعند ذلك لم تَعُد قصبات البوص تضحك، بل انتهى بها الأمر أن أصبحت تفكر بجدية.

ولم يَعُد في الإمكان تلقيح براعم الشجيرات أو العشب؛ فلم يكن بوسع الحشرات الوصول إليها دون أن تسخن أجنحتها الصغيرة إلى حد الاحتراق.

وعلاوة على ذلك، قيل إن الناس لم يعودوا يجدون لا الخبز ولا الفاكهة ولا العلف لحيواناتهم، وساد الأرض الجوع والأسى.

وفي وسط هذه الظروف، لم يبقَ سليمًا سوى الأشجار الطويلة بطبعها، بجذوعها السامقة القوية كالعادة، فهي لم تستسلم للإغراء.

وكانت قصبات البوص آخر من يسقط، معلنةً بذلك الخطأ التام لنظريتها في أن تصبح في مستوى الأشجار؛ فالجذور قد تعفَّنت من زيادة الرطوبة، وحتى شبكة الأوراق الكثيفة لم تمنع من جفافها كلية.

وتبيَّن بوضوح عند ذلك أن قصبات البوص، مقارنة بحالتها السابقة التي كانت فيها مصمتة صلدة، سوف تصبح مجوَّفة. كانت تتطاول مسافات شاسعة إلى أعلى، ولكنها كانت فارغة من الداخل، فأصبحت عرضة للسخرية، كالدمى وعرائس اللعب.

وأمام هذه الدلائل، لم يكن هناك من أحد يدافع عن الفلسفة التي قدمتها قصبات البوص، ولم يقُل أحد شيئًا عن ذلك لآلاف السنين.

وقد قامت الطبيعة — الكريمة دومًا — بإصلاح العطب في ستة شهور، وعملت على أن تنبت جميع النباتات البرية من جديد بالطريقة الطبيعية.

وظهر الشاعر ذو اللحية التي تشبه لحية إله البحار بعد طول غياب، وتغنَّى بالعصر الجديد في غبطة وانشراح:

«هكذا تكون الأمور أيها الأعزاء. جميل هو البنفسج في دقته، وشجرة الليمون لشكلها الرقيق. جميلة هي كل الأشياء كما خلقها الله؛ شجرة البلوط الكريمة وأعواد الشعير الهشة.»

وطرحت الأرض الفاكهة مرة أخرى، وسمنَت الحيوانات، وتغذَّى الناس.

ولكن قصبات البوص — تلك النباتات المتمردة — حملت على مرِّ الدهر سمة خِزيها؛ فقد أصبحت مجوَّفة، مجوَّفة، جوفاء …

كسوف الشمس

تأليف: مانويل زيليدون
(كوستاريكا)

مانويل زيليدون (١٨٦٤–١٩٣٦م)

وُلد في سان خوسيه عاصمة كوستاريكا، ودرس في المعهد القومي بها. وسافر في مقتبل عمره إلى كولومبيا ليعمل نائبًا للقنصل هناك. ولما عاد إلى بلاده عمل بالسياسة وانتُخب عضوًا بالبرلمان. بَيدَ أن السياسة خيبت آماله، فسافر هو وعائلته إلى الولايات المتحدة وأقام فيها ثلاثين عامًا. وهناك، عينَته بلاده قنصلًا عامًّا لها في نيويورك ثم سفيرًا في واشنطون.

وزيليدون هو عميد الأدب في كوستاريكا، ومؤسس حركة «العادات والأعراف في الأدب والفن» التي شاعت في زمانه في أمريكا اللاتينية. وتتألف معظم كتبه من الروايات والقصص القصيرة.

* * *

ليست هذه مجرد حكاية. إنها قصة حقيقية تتدفق من سن قلمي حينما كانت تتدافع من شفتي السيد «كورنليو كتشيدا»، أحد أصدقائي الأعزاء الذين أعرفهم في أرض الله الطيبة. وكان قد حكاها لي منذ خمسة شهور؛ فأدهشتني غرابتها حتى إنني اعتبرتها جريمة ألا أحكيها بدوري حتى يتمكَّن العلماء والملاحظون من دراسة الحالة بالعناية التي تستحقها.

وربما كان بوسعي أن أعطي تحليلًا جادًّا للموضوع، بَيدَ أنني سوف أحتفظ به إلى ما بعد سماع رأي القراء. وعلى أية حال، فيما يتعلق بالشيء الغريب الذي أشرت إليه سابقًا، ها هو بكل بساطة ووضوح.

جاء كورنليو لزيارتي مصطحبًا معه ابنتَين في الثانية والنصف من عمرهما، ولدتا في نفس «القماط» كما قال عنهما، واسمهما «ماريا دي لوس دولوريس» و«ماريا دل بينار»، وكلتاهما شقراء كعيدان القمح، بيضاوان مشربتان بالحمرة كالخوخ الناضج، وجميلتان كاللوحات الفنية، وهو تعبير آخر من تعابير كورنليو. وكان ثمة تناقض صارخ بين الجمال الطفولي للبنتَين وبين ملامح كورنليو التي لا تناسق فيها؛ إذ كان قبيح التقاطيع داكن البشَرة وجاف الجلد من أظافر يديه القذرة إلى شقوق كعبيه. وخطر لي على الفور بالطبع أن أساله: من هو الأب السعيد لهاتَين الطفلتَين الجميلتَين؟ وامتلأ الرجل العجوز زهوًا، وعقَص وجهه، ومسح لعابه بظهر يده المغطاة بالشعر وأجاب:

– حسنًا، إني أنا أبوهما، صدِّق أو لا تصدِّق! إنهما لا تشبهاني كثيرًا، ولكن أمهما حسنة الشكل، وليس هناك شيء بعيد على قدرة الله العلي العظيم.

– ولكن قل لي يا كورنليو، هل زوجتك شقراء أم أن البنتَين تشبهان جدودهما؟

– كلا. ليس في العائلة كلها من يشبه الواحد منهم الآخر. لقد كنَّا جميعًا من المخلطين.

– حسنًا إذَن، كيف تفسر أن تولد البنتان بهذا الشعر وتلك البشرة؟

وأطلق العجوز ضحكة ساخرة، ووضع ذراعيه في وسطه، وصوَّب نحوي نظرة احتقار واستهجان.

– علام تضحك يا كورنليو؟

– حسنًا، ألا يجب أن أضحك يا سيد «ماجون» حين أجد أن شخصًا فقيرًا جاهلًا مثلي، فلاحًا أجيرًا، يعرف أكثر مما يعرف شخص مثلك، يقولون عنه إنه من أكثر الناس علمًا وقراءة في الكتب، حتى إنك تحرر القوانين لرئيس الجمهورية ووزرائه؟

– حسنًا إذَن. اشرح لي الأمر.

– ستعرف ما حدث.

وتناول كورنليو، قطعة كبيرة من الحلوى من خُرجه، وأعطى جزءًا منها لكل من البنتَين الصغيرتَين، وجذب مقعدًا جلس يستريح عليه وهو يزهو بانتصاره المرتقب. وتمخَّط بصوت عالٍ، مغطيًا كل فتحة من أنفه بأصبعه، نافخًا في الأخرى بكل قوته، ونظف الأرض بحذائه، ومسح يديه في داخل سترته، وبدأ شرحه بهذه الكلمات:

– أنت تعرف أنه في مارس منذ ثلاث سنوات، حدث كسوف، تحوَّل فيه وسط الشمس إلى اللون الأسود. حسنًا، وحوالي عشرين يومًا قبل ذلك، ظهرت على «لينا» زوجتي علائم الحمل في هاتَين البنتَين الصغيرتَين. ومنذ ذلك الوقت، انتابتها علائم القلق وأمسكت بخناقها. لقد كان شيئًا عجيبًا. لم يكن من شيء يخفف عنها. كانت تغادر المنزل، ليل نهار، متطلعة دائمًا إلى السماء. كانت تذهب إلى الخرائب، وإلى الغدير، وإلى سور الأعشاب البرية، وما يمليه عليها خيالها ومرضها ذاك، فلم يكن هناك أي شيء نفعله معها. وكانت كثيرة «التوحُّم» في كل مرة من مرات حملها. وقد حدث هذا عند مولد الابن الأكبر؛ فقد أيقظتني ذات ليلة وطلبت مني الذهاب للبحث عن عِرق شجرة برقوق لها. كان أفضل لي الخروج للبحث عن ذلك المطلب الغريب من أن يولد الطفل وبه عيب خِلقي. وقد أحضرت لها العِرق. وبعد ذلك، كانت لها طلبات غريبة أخرى، ولكني لم أرَها بتلك الكثرة التي واكبت حملها في تلكما البنتَين. وهكذا كما ذكرت لك، كانت تتطلع إلى السماء ليل نهار، وكنت قد ذهبت يوم الكسوف إلى منطقة الشجيرات عند سور العشب منذ انبلاج الفجر ... وحتى لا أطيل عليك بالتفاصيل، استمر الحال على ذلك المنوال حتى ولادة البنتَين. وإني لأعترف أن رؤيتي لهما هكذا شقراوين بيضاوين قد ملأتني بالدهشة، ولكن يبدو أنهما قد جلبتا معهما بركات الله. فمعلمة المدرسة تحبهما وتخيط لهما ملابسهما، والنائب السياسي يمنحهما كل ما في جيبه من فكة، والقسيس يطلب مني أن يُجلسهما بالقرب من هيكل الكنيسة في الملابس الكتانية في احتفالات الأسبوع المقدس، وهم يخرجون بهما في المسارات الدينية في تلك الاحتفالات، وفي أعياد الميلاد، يلبسونهما ما يناسب وضعهما إلى جوار العائلة المقدسة. وكل النفقات يدفعها منظمو الاحتفالات من جيوبهم، كما أنهم يمنحونهما عملات كبيرة، وحتى نقودًا ورقية، أو هدايا ثمينة. تبارك الله الذي خلقهما لخدمته من أب قبيح الشكل مثلي! ... كما أن «لينا» شديدة التعلق بالبنتَين حتى إنها لا تطيق ألا يسرف الناس في الثناء عليهما. وقد حدث فعلًا أن تشاجرَت مع عجائز الحي حول هاتَين القطتَين الجميلتَين.

وقاطعت كورنليو بعد أن خشيت ألا ينتهي حديثه، وعُدت به إلى موضوعنا.

– حسنًا، ولكن ماذا كان الأمر؟

– ما الأمر؟ ألا تدرك الآن أنه بسبب تطلع الأم إلى كسوف الشمس جاءت البنتان شقراوين؟ ألا تفهم ذلك؟

– ... لا أفهم ذلك. ويدهشني أنك توصَّلت إلى ذلك وأنت لم تنَل أي قدر من التعليم.

– لن أخفي عنك يا سيد ماجون، فلم أكن أنا الذي توصَّلت إلى سرِّ ذلك الأمر. هل تعرف مهندس البناء الإيطالي الذي أقام برج كنيسة البلدة؟ ذلك الرجل الضخم الأحمر الشعر والأبيض البشرة الذي كان يتناول طعامه في منزلنا طوال أربع سنوات؟

– كلَّا يا كورنليو.

– حسنًا، لقد كان هو الذي شرح لي موضوع كسوف الشمس.

عدالة هندية

تأليف: ريكاردو خايمس فريري
(بوليفيا)

ريكاردو خايمس فريري (١٨٦٨–١٩٣٣م)

كاتب من بوليفيا عاش سنوات طويلة في الأرجنتين حيث نشر أول كتبه، وهو ديوان شعر بعنوان «باربارا». شارك بقصائده في حركة الحداثة في أدب اللغة الإسبانية التي قاد لواءها «روبين داريو»، وساهم بعديد من الابتكارات والأوزان الشِّعرية الجديدة ونماذج من الشِّعر الحر. وعاد إلى بوليفيا عام ١٩٢١م ليشغل منصب وزير التعليم ثم وزير الخارجية. مثَّل بلاده سفيرًا في عدد من الدول منها الولايات المتحدة والبرازيل. وله أيضًا عديد من القصص القصيرة، اشتهرت منها القصة المختارة هنا، وقد طبق فيها الأسلوب الحديث على مشكلة من مشاكل عصره، وهي استغلال السكان الأصليين. وقد تعمَّد المؤلف تصوير القسوة في انتقام الهنود من السادة الذين يستعبدونهم، ليصوِّر العدالة كما يفهمها هؤلاء الهنود، ورسم عالَمين متناقضَين يحكم كل منهما تقاليد خاصة لا يمكن التغلُّب عليها.

* * *

كان المسافران يشربان ما تبقَّى من نبيذ، وهما واقفان أمام النار الموقدة في الخارج. كانت نسمة الصباح الباردة تهزُّ قليلًا حواف قبعتَيهما العريضتَين المصنوعتَين من اللباد. كانت النيران قد بدأت تخفت بالفعل في إطار نور الفجر الرمادي المتردد، كما بدأت الأعمدة الصلصالية البدائية الثقيلة تبين شامخة قبالة الظلال التي تتبدَّى في الخلفية.

وكان هناك حصانان مربوطان في حلقة حديدية مثبتة في أحد الأعمدة، ينتظران وقد تم تجهيزهما، خافضَي الرأس، يمضغان أعوادًا طويلة من الحشائش بصعوبة. وكان هندي شاب يقف إلى جوار الحائط ومعه كيس مليء بالذرة في إحدى يديه، وهو يلقي بحباتها الصفراء إلى فمه.

وحين تهيأ المسافران للرحيل، ظهر هنديان آخران عند البوابة الكبيرة. ورفعا أحد العروق الخشبية الضخمة الموضوعة على الجدران الثقيلة، وفتحا الباب ودلفا إلى الساحة الرحيبة.

كان يبدو عليهما الفقر والبؤس، وزاد من فقرهما وبؤسهما سترتاهما الممزقتان وقميصاهما المفتوحان الخشنان والعقَد الكثيرة في أربطة صندلَيهما الجلدية.

واقتربا من المسافرين في بطء عندما كانا يقفزان على حصانَيهما، بينما كان المرشد الهندي يربط كيس الذرة إلى وسطه ويعقد رباط صندله حول ساقه.

كان المسافران ما زالا في شرخ الشباب؛ أحدهما طويل القامة، شديد البياض، ذو نظرة صارمة باردة. وكان الثاني صغير الحجم، أسمر، ذا مظهر بهيج.

وتمتم أحد الهنديَّين: «أيها السيد ...» والتفت إليه المسافر الأبيض.

– أهلًا، ما الأمر يا توماس؟

– أيها السيد ... أعطني حصاني ...

– مرة أخرى، أيها الأبله! هل تريدني أن أسافر مشيًا على الأقدام؟ لقد أعطيتك حصاني مقابله، وهذا يكفي.

– ولكن حصانك ميت.

– طبعًا هو ميت؛ وذلك لأني قد ركبته خمس عشرة ساعة متواصلة. لقد كان حصانًا عظيمًا! إن حصانك لا يساوي شيئًا. هل تظن أنه سوف يتحمَّل ساعات كثيرة؟

– لقد بعت ما لدي من حيوانات اللاما كي أشتري هذا الحصان لأعياد القديس يوحنا ... وبالإضافة إلى ذلك يا سيد، أنك قد أحرقت كوخي.

– طبعًا؛ لأنك جئت تضايقني بشكاواك. لقد قذفت رأسك بجمرة نيران كي أبعدك عني، وبما أنك أدرت وجهك؛ فقد وقعت على كومة من القش. ليس هذا ذنبي. كان يجب

عليك أن تتلقى جمرتي باحترام. وأنت يا «بدرو»، ماذا تريد؟ قال هذا موجهًا الكلام للهندي الآخر.

– لقد حضرت إليك يا سيدي كي أضرع إليك ألا تستولي على أرضي؛ إنها أرضي، وقد قمت بزراعتها.

فقال السيد موجهًا حديثه إلى رفيقه: إن هذا الموضوع يخصك يا «قرطبة».

– كلا، ليس هذا من اختصاصي. لقد فعلت وحسب ما أمرت أن أفعل. إنك أنت، يا «بدرو كيسبي»، لست مالك هذه الأرض. أين هي حجة ملكك القانونية؟ أين هي أوراقك؟

– ليست لدي أي أوراق يا سيدي. ولم يكن لأبي أي أوراق هو الآخر. إنني لم أسِئ إليك أبدًا.

– هل تملِك حقيبة ملآنة بالنقود تخبئها في مكانٍ ما؟ أعطني الحقيبة ولك أن تحتفظ بالأرض.

وتطلع بدرو إلى قرطبة في ألم.

– ليست عندي أية نقود، كما أنه ليس بوسعي الحصول على مثل تلك النقود.

– في هذه الحالة، ليس هناك ما يقال. دعني وشأني.

– على الأقل، ادفع لي ما أنت مدينٌ لي به.

– ألن ننتهي من ذلك الموضوع أبدًا؟ هل تظن أنني من البلاهة كي أدفع لك ثمن شاة وبضع دجاجات أعطيتها لي؟ هل كنت تتخيل أننا نموت جوعًا؟

وصاح المسافر الأبيض الذي كان قد بدأ صبره ينفد: إذا واصلنا الاستماع إلى هذين المعتوهَين فسنبقى هنا إلى الأبد.

كانت قمة الجبل الذي كان المسكن الريفي يقع في جانب منه قد بدأت تلتمع بعد أن ضربتها أشعة الشمس الأولى. وبدأ النور يغزو الشريط الضيق من الأرض القاحلة، واستبانت الطبيعة الموحشة الجدباء التي تكللها سلسلة الجبال الداكنة اللون، تحت سماء زرقاء تقطعها هنا وهناك سحائب رمادية هاربة.

وأشار قرطبة إلى المرشد، فتحرَّك نحو البوابة وتبِعه الرجلان على حصانيهما.

واندفع كيسبي تجاههما وأمسك بعنان أحد الحصانَين. بَيدَ أن ضربة سوط على وجهه جعلته يرتد إلى الخلف. وبعد ذلك، جرى الهنديان خارج الفناء، تجاه تلٍّ قريب، وتسلقاه بسرعة وثقة أهل البلاد المحليين، وحين بلغا قمته، تطلعا حواليهما.

ورفع بدرو كيسبي إلى شفتيه بوقًا كان يحمله على ظهره وأصدر منه صوتًا عميقًا طويلًا. وتوقف لحظة ثم واصل إصدار النغمة السريعة الحادة.

كان المسافران قد بدآ السير بجوار الجبل، وكان المرشد يسير بخطى واثقة أكيدة لا يحفل بشيء وهو يأكل حبات الذرة. وحين ترددت أصداء البوق، توقف الهندي، ونظر إلى الرجلين على حصانيهما في فزع ثم أخذ يجري بخِفة في ممر يُفضي إلى الجبال. وبعد لحظات، كان قد اختفى عن الأنظار.

وصاح قرطبة موجهًا حديثه إلى رفيقه: ألفاريز، لقد أخذ هذان الوغدان مرشدنا.

وأوقف ألفاريز حصانه وتطلع في كل الأنحاء بقلق.

– المرشد ... ولماذا نحن في حاجة إليه؟ إني أخشى ما هو أسوأ.

واستمر البوق في النداء، واستبان على قمة التل جسد بدرو كيسبي على خلفية زرقة السماء وجدب قمم الجبال الحمراء.

وكأنما ألقيت على حواف الجبال وممراتها تعويذة سحرية. فمن وراء أكوام التبن الضخمة، ومن حقول الحشائش والأحراش البرية الطويلة، ومن تحت الخيام القماشية الكبيرة في مخيمات الهنود، ومن أبواب الأكواخ الصغيرة، وعلى قمم الجبال القصية، كانت تُرى أشباح آدمية تبرز وتختفي بسرعة. كانوا يتوقفون برهة، ويتطلَّعون تجاه الجبل الذي كان بدرو كيسبي لا يزال يُطلق صفيره منه، ثم يزحفون عبر التلال وهم حذرون.

وواصل ألفاريز وقرطبة سيرهما في الجبل، وكان حصاناهما يلهثان وهما يسيران في الممرات الضيقة الوعرة لتلك المنطقة الصخرية. وكان الرجلان يسيران في صمت وقد خيَّم عليهما قلق عميق.

وفجأة، سقطت إلى جوارهما صخرة ضخمة اقتُلعت من قمة الجبل في زئير مدوٍّ. ثم صخرة أخرى ... فأخرى ...

ودفع ألفاريز حصانه إلى الأمام بأقصى سرعته، ملتفًّا به حول الجبل. وفعل قرطبة نفس الشيء على الفور، ولكن الصخور الثقيلة تابعتهما. كان يبدو أن الجبل كله ينهار. وقفز الحصانان فوق الصخور وكأنهما قد وقعا في وسط عاصفة، وداسا بحوافرهما على الأطراف الصلبة متعلقَين في الفضاء على علوٍّ شاهق.

وسرعان ما تكلَّل الجبل بالهنود. واندفع الراكبان عند ذاك إلى الممر الضيق الذي كان يتعرَّج ويلتوى تحتهما؛ حيث كان هناك مجرًى مائي رفيع شفاف يتدفق في هدوء.

كانت الوهاد مليئة بالأصوات الغريبة، وكان صوت الأبواق يأتي من كل الأنحاء، وفي نهاية الممر برزت فجأة مجموعة من الرجال ووقفت تجاه النور الساطع الذي كان يفصل بين الجبلَين.

وفي تلك اللحظة، أصابت صخرة كبيرة حصان ألفاريز، فتردد فيما يبدو هُنيهة ثم سقط متدحرجًا على جانب الجبل. وقفز قرطبة إلى الأرض وأخذ يزحف تجاه الكتلة المتربة التي كان يمكن التعرُّف من بينها على الحصان وراكبه.

وبدأ الهنود يهبطون من على القمم، كانوا يأتون واحدًا واحدًا من الشقوق والثَّنيات، يتقدمون بحذر، ويتوقفون كل ثانية ليُراقبوا قاع الوادي. وحين بلغوا حافة الجدول، رأوا المسافرَين. كان ألفاريز مُمددًا على الأرض، فاقد الرشد. وكان رفيقه واقفًا إلى جواره وقد عقد ذراعيه على صدره في يأس لعدم قدرته على فعل أي شيء، وراقب نزول الهنود البطيء المخيف.

كان الرجال والنساء من العجائز قد تجمعوا انتظارًا لنتيجة المطاردة في السهل الصغير الذي يكوِّنه منخفضات سلاسل الجبال المحيطة به. وكانت النسوة الهنديات، بأرديتهن القصيرة المستديرة المصنوعة من القماش الخشن، وعباءاتهن على صدورهن، وضفائرهن غير المنتظمة على ظهورهن، عاريات الأقدام، متجمعات في أحد الأركان في صمت، وكانت ترى أصابعهن تقوم بعملية الغزل على البكرات الحديدية وكأنها ترقص في سرعة مخيفة.

وحين وصل الهنود، أحضروا المسافرَين معهم، مربوطَين إلى حصانَيهما. وتقدَّموا إلى وسط السهل الصغير، وهناك ألقَوا بهما على الأرض كجِوالَين. وعندها تقدَّمت النسوة وتطلعن إليهما في حب استطلاع، دون أن يتوقفن عن الغزل والحديث في همس.

وتشاور الرجال الهنود فيما بينهم هنيهة، ثم أسرع فريق منهم إلى سفح الجبل. وعادوا ومعهم جرَّتان كبيرتان ولوحان عريضان. وبينما أخذ البعض يحفرون حُفرًا في الأرض ثبتوا فيها لوحَين من الخشب، كان الآخرون يملئون بعض الأكواب الفخارية الصغيرة من السائل الذي كان في الجرتَين.

وشربوا حتى بدأت الشمس تغرب في الأفق؛ ولم يكن يُسمع من شيء سوى الحديث الخافت بين النسوة وصوت السائل وهو ينصبُّ إلى الأكواب من الجرتَين المرفوعتَين عاليًا.

ورفع بدرو وتوماس جسدَي المسافرَين وربطاهما إلى لوحَي الخشب المثبتَين في الأرض. وصدر عن ألفاريز أنين متطاول، فقد كان عموده الفقري قد انكسر في سقطته. وجرَّد الهنود الرجلَين من ملابسهما مطوِّحِين كل قطعة بعيدًا عنهما. وتطلعت النسوة إلى الجسدين الأبيضين في دهشة.

ثم بدأ العقاب. فانتزع بدرو كيسبي أجزاءً من جسد قرطبة وأحرق أجزاء أخرى. وغطى توماس جسد ألفاريز بطعنات من مدية صغيرة. ثم تقدم الهنود الآخرون وأخذوا يرشقونهما بالحجارة. وصبَّت شابة هندية محتويات كوبها على وجه ألفاريز.

كانت الظلمة تهبط. وكانت روحا المسافرَين قد صعدتا إلى بارئهما منذ فترة طويلة. ولكن الهنود كانوا لا يزالون يصبُّون عدالتهم على الجسدَين الهامدَين.

ثم حان وقت التعاهد على كتمان السر. ورسم بدرو كيسبي صليبًا على الأرض، وأقبل كل الرجال والنساء يقبِّلون الصليب. وبعد ذلك، أحل بدرو المسبحة التي تحيط بعنقه على الدوام، وأقسم الهنود عليها، ثم بصق على الأرض، وعبر الهنود فوق التراب المبتل.

وحين اختفت الآثار الدامية لما حدث، وانمحت كل آثار ما حدث على تلك الربوة العالية، كان الليل بكل جلاله ورحابته يهبط على تلك العزلة الجبلية.

السجين

تأليف: أوجستو روا باستوس
(باراجواي)

أوجوستو روا باستوس (١٩١٧م)
وُلد أوجوستو روا باستوس في أسونسيون عاصمة باراجواي، وبدأ عمله كصحفي في سن مبكرة، وسافر خلال الحرب العالمية الثانية إلى كثير من بلدان أوروبا وأفريقيا كمراسل صحفي. وصدر حكم بنفيه من باراجواي عام ١٩٤٧م لكتاباته السياسية، فعاش في بوينوس آيرس عاصمة الأرجنتين منذ ذلك الوقت. بدأ نشاطه الأدبي بوصفه شاعرًا، بَيدَ أنه اشتهر عن طريق رواياته وقصصه القصيرة واستخدم في قصصه أساليب متعددة وموضوعات مختلفة. وأشهر رواياته هي «ابن الإنسان» التي صدرت عام ١٩٦٠م. وقد عمِل أيضًا في وضع سيناريوهات كثير من الأفلام الأرجنتينية. ونشرت قصة «السجين» في مجموعة قصصية عنوانها «الرعد بين أوراق الشجر».

* * *

أجابت الطلقات بعضها على بعض دون توقُّف في ليل الشتاء البارد. وشكَّلت خطًّا متعرجًا مترددًا حول الكوخ. وفيما بين فترات صمت قلقة، كانت أصوات الطلقات تتقدم وتتقهقر على طول حافة الغابة والمستنقعات المتاخمة لشاطئ النهر، مثل خيوط شبكة انغلقت في حرص وإنما بثبات. وطِفقت أصداء الطلقات تتردد خلال طبقات سمعية رقيقة في الهواء

الذي كان ينكسر مع كل طلقة. وكان من الممكن حساب قُطر دائرة الشبكة من المدة التي يستغرقها الصدى؛ فإذا أخذنا الكوخ بوصفه المركَز، يكون طول الدائرة حوالي أربعة أو خمسة كيلومترات. ولكن تلك الأرض المربعة، التي تحددت واستكشفت من كل نواحيها، كانت بلا حدود تقريبًا. وكان نفس الشيء يحدث في كل الأنحاء.

لقد رفضت الانتفاضة الشعبية أن تموت كلية. ودون أن تعلم أنها قد سلبت بالفعل من انتصارها بالخداع والتمويه، ظلت تثير الأمل في عناد بحرب عصابات متهالكة، وسط المستنقعات وفي الأحراش وفي القرى المقوضة.

ولقد سطرت الكراهية أبشع صفحاتها؛ حيث انتهت الانتفاضة وليس أثناء القتال ذاته؛ فقد انحطَّ القتال الفئوي فأصبح عربدة انتقام وحشي. وتحدد مصير عائلات بأكملها عن طريق لون الشارة الحزبية التي يضعها الأب أو الإخوة. ودمرت العاصفة المفجعة كل ما تستطيع تدميره. لقد كان الأمر كشعائر سفك الدماء، ولقد كشفت الآلهة المحلية الشرهة مرة أخرى عن عيونها النارية من خلال أوراق الشجر، وفيها كانت صورة الرجال تنعكس كظلال حلم بدائي قديم. وكان الفك الصخري الأخضر يطحن تلك الظلال المارقة. صرخة في الليل، عواء بومة من المستحيل تحديد مكانها، فحيح أفعى في الحشائش الطويلة، كلها ترفع أسوارًا لم يجرؤ الهاربون على عبورها. كانوا قد انحصروا في سرداب جهنمي، واقعين بين البنادق الآلية وبنادق «الماوزر» وراءهم، وبين موجات هلاوس الرعب الذي كان يرافق هربهم. وقد آثر البعض أن يواجه دوريات الحكومة وينهي الأمر.

كان الكوخ المحترق في وسط الأحراش رمزًا مناسبًا لما كان يحدث من أمور. كان مشهدًا حزينًا، وسلميًّا في ذات الوقت؛ مشهدًا تكمن فعاليته في براءته التي تمزَّقت أشلاء. لم يكن العنف قد أنهى مهمته بعد؛ فلم يكن قد تمكَّن من محو بعض التفاصيل الصغيرة التي كانت ذكرى زمن آخر. كانت الأعمدة المحترقة تشير مباشرة إلى السماء وسط الجدران الطوبية المتداعية. وكان القمر يخلع مسحة من البياض الحليبي على الأركان الأربعة المتفحمة. بَيدَ أن هذا لم يكن أهم شيء. فعلى إفريز نافذة في نهاية الكوخ، مثلًا، كان هناك أصيص زهر ما يزال؛ علبة صغيرة من الصفيح الصدئ يخرج منها ساق زهرة قرنفل ملفوحة من اللهيب. بقيَت على الرغم من كل شيء، كالذكرى المنسية، غافلة عن الزمن، محاطة بلمعة القمر الأبدية، كعين طفل أعمى حضر جريمة وإن لم يكن قد رآها.

كان الكوخ يقع في نقطة استراتيجية؛ فقد كان يتحكم في المنفذ الوحيد من منطقة المستنقعات؛ حيث كان البحث يجري على قدم وساق، وحيث كان يفترض أن آخر مجموعة

من مجموعات رجال حرب العصابات المتمردين في هذه المنطقة مختبئة فيها. كان الكوخ بمثابة مركز العمليات لدورية الحكومة.

كانت الأسلحة وصناديق الذخيرة مرصوصة فيما كانت الغرفة الوحيدة للكوخ. وكان بين الأسلحة وصناديق الذخيرة مقعد خشبي متشقق ينام عليه جندي غطَّى عينيه بقبعته العسكرية. وعلى ضوء خفق النيران الضعيفة التي أوقدها الجنود ضد تعليمات الضابط الصارمة كيما يدفعوا عن أنفسهم غائلة البرد، كان يمكن رؤية أطراف المقعد المتهرئة وقد أصبحت ملساء بفعل سنوات وسنوات من استخدام الفلاحين وعرقهم. وفي مكان آخر، كان جزءٌ من الجدار يظلل بسطة حجرية تكاد تكون سليمة وعليها زجاجة سوداء تنضح بالدهن وثمة شمعة نصف محترقة مثبتة في فوهتها. ووراء الكوخ، كان هناك محراث حديدي صغير يرتكز على جذع شجرة برتقال، ونصله يلمع في خفوت، يبدو في انتظار يد صاحبه وهو يقبض على سطحه ويمسك بمقبضه في الصباح، تلك اليد المعروقة التي قد تكون الآن تتعفَّن تحت الثرى في أرض لا يعلمها إلا الله. وقد أعادت تلك الآثار ذكرى الحياة مرة أخرى. فلا الجنود ولا الأسلحة الأوتوماتيكية والرصاص والعنف يعنى أي شيء. الشيء الوحيد المهم هنا هو آثار الحنان المفقود.

ومن خلال تلك الآثار يمكن للمرء أن يرى الأشياء الخفيَّة، ويشعر في قصتها بنبض الدوام. وفيما بين الطلقات وبعضها الآخر الذي يردد صدى طلقات أخرى بعيدة، كان الكوخ يبرز إلى الأمام مرتكزًا على ما تبقَّى منه من بقايا محطمة. كانت العلبة الصفيح الصغيرة الصدئة التي يخرج منها ساق قرنفلة تبعث في الذهن يدَي شخصٍ ما، عينَي شخصٍ ما. وتلك اليدان وتلك العينان لم تختفِ تمامًا. كانت هناك صامدة بوصفها جزءًا من الهالة التي لا تنطفئ والتي تنبجس من الكوخ، هالة الحياة التي سكنته سابقًا. كان المقعد القديم الصقيل، والمحراث الذي لا يعمل، المستند إلى جذع شجرة البرتقال، والزجاجة السوداء التي بها بقية الشمعة والشحم الذي يقطر منها، كلها تبرز بحميمية أكثر كثافة وطبيعية من الصورة الكلية التي يوحيها الكوخ نصف المحترق. كان ثمة جذع متفحم ما يزال يعلق به فرع، يتصاعد منه دخان رقيق. كان عمود الدخان الرفيع يعلو ثم يتفكَّك في خصلات زرقاوية كنُدف القطن تتعارك عليها تيارات الهواء. كان الأمر كزفرات الخشب الصلد الذي سوف يواصل انصهاره أيامًا عديدة مقبلة. إن لبَّ شجرة «التمبو» صلب أمام النيران، صلابته أمام البلطة وأمام الزمن. بَيدَ أن الدخان كان يتصاعد منه أيضًا، وسوف ينتهي إلى أن يصبح رمادًا وردي اللون.

وعلى أرضية الكوخ الترابية، كان الجنود الثلاثة الآخرون في الفصيلة يستدفئون إلى جوار النار الضعيفة ويطردون النوم عنهم بتجاذب أطراف حديث مفكَّك يتخلله التثاؤب والإيماءات. لم يكونوا قد ناموا طوال ثلاث ليالٍ الآن. ذلك أن قائد الفصيلة قد أبقى رجاله في عمل دائم منذ وصولهم.

وراعهم صفير بعيد آتٍ من جهة الأحراش. كان كلمةَ السر المتفق عليها. فأمسكوا ببنادقهم، وقام اثنان منهم بإطفاء النار بسرعة بكعبَي بندقيتَيهما، وأيقظ الجندي الثالث الآخر الذي كان نائمًا على المقعد وهو يهزه بعنف: انهض يا سالديفار، قُم، استيقظ. سوف يسوِّي الضابط حسابه معك أيها الطري ...

ونهض الجندي وهو يفرك عينيه، بينما هرع الآخرون لملء أماكن حراستهم المفترضة في الليل القارس البرودة.

وأجاب أحد الحراس على الصفير الخاص الذي تكرر مرة أخرى من مكان أقرب هذه المرة. وسمعوا خطوات أقدام تقترب. وبعد لحظات، ظهرت الدورية. كان بوسعهم أن يتبيَّنوا الضابط وهو يسير في المقدمة بين فروع شجر جوز الهند بسبب حذائه الطويل وقبعته وسترته الجلدية. وتقدَّم ظله السميك القصير في ضوء القمر حين كان ثمة سحابات صغيرة قد بدأت تغطيه. وكان ثلاثة جنود ممن جاءوا بعده يجرُّون جسم رجل. وفكر سالديفار أنه ربما كان رهينة أخرى، كالفلاح العجوز في الليلة الماضية الذي قام الضابط بتعذيبه كيما ينتزع منه بعض المعلومات عن مخابئ الثوار. ومات الفلاح دون أن يتمكَّن من قول أي شيء. كان الأمر مريعًا. فجأة، وهم يضربونه، بدأ العجوز وأسنانه مُطبقة يغنِّي في هدوءٍ شيئًا لا يكاد يبين، أغنية حيوية حزينة في نفس الوقت. كان يبدو وقد جُن. وارتعد سالديفار وهو يتذكَّر ذلك.

ولم يبدُ شيء حتى الآن على أن المطاردة ستؤدي إلى نتيجة، وتضايق الضابط «بيرالتا»، وقد تسلَّط عليه هذا المعقل الشبحي الذي يكمن في مكانٍ ما من المستنقعات والذي كان لا يزال يُفلت من قبضته.

كان الملازم بيرالتا رجلًا شديد المراس، استحوذت عليه مَهمته، وهي صفة مناسبة للعملية المحددة التي كان يقوم بتنفيذها. كان فيما سبق ضابطًا في الشرطة العسكرية خلال «حرب الشاكو»، وكان قد خرج من العمل حين اندلعت الثورة، ولما لم يكن إنسانًا وجلًا ولا خاملًا، فقد عاد إلى الخدمة. لم يكن اسمه قد تردد خلال القتال، ولكنه بدأ يُعرف حين دعت الحاجة إلى خبير ورجل صارم كيما يتعقب الثوار. وهذا هو السبب في أنه كان

الآن في هذا المكان الذي هو بؤرة من بؤر الثوار. كان يريد أن يقضي عليها في أسرع وقت ممكن حتى يعود إلى العاصمة ويستمتع بنصيبه من احتفالات النصر.

ومن الواضح أن بيرالتا كان قد عثر على دليل يهديه خلال بحثه الدائب، وكان يستعد لإطلاق الضربة الأخيرة. وسمع سالديفار وسط خدر حواسه التام صوت بيرالتا يصدر أوامره. كما رأى على نحو مبهم زملاءه يضعون مدفعَين ثقيلَين في الشاحنة ويرحلون في الاتجاه الذي أوضحه بيرالتا. وسمع شيئًا عن أن رجال حرب العصابات محصورون في جزيرة مشجَّرة صغيرة في مستنقع. وسمع في غير وضوح بيرالتا يقول له: «سالديفار، سوف تبقى هنا وحدك. أما نحن فسوف نحاصر أولئك المجرمين في المستنقع. إني أتركَكَ لحراسة السجين والمؤن.»

وبذل سالديفار جهدًا مؤلمًا كيما يفهم. ولم يتبين الأمر إلا بعد أن رحل الآخرون بالفعل. كان الليل قد أوغل في سواده. وكانت الريح تعوي في عنف عبر أشجار جوز الهند التي كانت تحيط بالكوخ من كل جانب. وعلى الأرض الترابية كان يرقد جسد الرجل بلا حراك. ربما كان نائمًا، أو ميتًا. كان الأمر يستوي بالنسبة إلى سالديفار. كان ذهنه يتجوَّل بين مجموعة من المشاهد المتنوعة والمختلفة، فيما بينها اختلاف كبير، وكل منها غير مترابط. كان النوم يخدِّر إرادته بالتدريج. كان كالجراب المطاطي اللاصق الذي يحيط بأطرافه. لم يكن يبغي إلا أن ينام. ولكنه كان يدرك على نحوٍ مبهمٍ مشوشٍ أنه يجب ألا ينام. كان يُحس على عنقه بفقاعة هواء. كان لسانه قد أصبح شبيهًا بالعجين، وشعر أنه يتورم تدريجيًّا في فمه وأنه سوف يُخمد أنفاسه في لحظة من اللحظات. وحاول أن يمشي حول السجين، بَيد أن قدمَيه رفضتا أن تطيعاه. وترنَّح كالثمِل. وحاول أن يفكر في شيء محدد ومحسوس، بَيد أن ذكرياته المهوَّشة دارت في حلقات بطيئة كدائرة العنكبوت في اضطراب، وانزلقت عبر رأسه دون شكل ولا وزن. وفي ومضة أو ومضتَين من الصفاء، فكَّر سالديفار في أمه وأخيه. كانا مثل أخدودَين مثيرَين للألم في كتلة بلادته الناعمة الإسفنجية. لم يَعُد النوم يبدو ساكنًا جسده، بل أصبح شيئًا خارج نطاقه، عنصرًا من عناصر الطبيعة استكنَّ إليه هاربًا من الليل، من الزمن، من العنف، من تعب الأشياء، وأرغمه أن ينحني إلى أسفل أكثر فأكثر.

كان جسد الصبي يرتجف بفعل البرد أقل منه بفعل النوم الذي كان يطويه في استنفاد مؤلم. ولكنه ظلَّ واقفًا. كانت الأرض تناديه. كان الجسد الساكن للرجل الممدد على الأرض يناديه بمثاله الصامت المريح، ولكن الصبي قاوم الإغراء، ونبضاته ترتجف كفرخ الطائر فوق غصن هش.

كان هوجو سالديفار في الثامنة عشرة من عمره، وكان واحدًا من كثير من المجندين من مدينة «أسنسيون» العاصمة الذين استُدعوا للخدمة العسكرية مع اندلاع الحرب الأهلية. ولقد أدَّت سلسلة مريرة من الأحداث العفوية التي أرغمته على المرور بعديد من التجارب العبثية، إلى أن يصل إلى هنا على نحو عبثيٍّ ليخدم في فصيلة لاصطياد الثوار بقيادة الملازم بيرالتا في مستنقعات الجنوب بالقرب من منطقة «برانا».

كان الصبي الوحيد في المجموعة، غريبًا بين هؤلاء الرجال الآتين من أصول ريفية متنوعة مدفوعين إلى تنفيذ مهمة شريرة تتغذى على نفسها كالسرطان. وفكر هوجو سالديفار كثيرًا في الهرب من الخدمة العسكرية. ولكنه قرر في نهاية الأمر أنه لا جدوى من ذلك. كان العنف يعصف به، كان يوجد في كل مكان. لم يكن سوى بُرعم بائس، ورقة شجرة ذابلة، يتغذَّى على الكتب والمدرسة، على شجرة متعفنة تتهاوى ساقطة.

وفي الواقع، كان أخوه فيكتور قد حارب في ثبات. ولكنه كان قويًّا نشطًا، ولديه أفكاره التي يؤمن بها بشأن الإخوة بين بني الإنسان والجهد المطلوب لتحقيقها. كان يشعر بكلمات أخيه منقوشة على جلده، بَيدَ أنه كان يحب أن يراها منقوشة في قلبه: «علينا أن نتَّحد جميعًا يا هوجو، كيما نُزيل كل ما لم يَعُد قادرًا على أن يقدِّم لنا شيئًا، وأن نقيم مكانه نظامًا اجتماعيًّا نعيش في ظله دون أن نشعر بعداءٍ تجاه أحدنا الآخر، وحيث تكون الرغبة في العيش كأصدقاء هي الهدف بالنسبة للجميع ...»

كان فيكتور قد قاتل في «حرب الشاكو» وعاد بعد ذلك حاملًا معه ذلك الشعور الماسَّ الهائج بضرورة عمل شيءٍ ما لرفاقه من بني الإنسان. كان التحوُّل الذي أصاب ذلك الأخ الأكبر ظاهرة مدهشة بالنسبة لصبي عمره عشر سنوات، وهو الآن، بعد ثماني سنوات، قد أصبح بالفعل رجلًا كبيرًا. كان فيكتور قد عاد من المحرقة الكبرى التي أشعلها البترول في «شاكو» بندبة غائرة على جبهته. بَيد أنه تحت هذا الجرح الثاوي، كانت له قناعة ذكية وسخية. ولقد شيَّد لنفسه عالمًا كان يزخر، إلى جانب الذكريات الملبدة والضيق، بالإيمان الرحيب والآمال المحددة لما يمكن أن يحرز من أشياء.

وكثيرًا ما كان الصبي يفكر أنه من الجميل حقًّا أن يعيش المرء لتحقيق مثل ذلك العالم الذي يحلم به أخوه فيكتور، وكان ذلك يؤثِّر فيه أيَّما تأثير. وبعد ذلك، رأى وفهم الكثير من الأشياء. كانت كلمات فيكتور تخترق جلده في بطءٍ لتنفذ إلى القلب. وحين التقيا مرة أخرى، كان كل شيء قد أصبح مختلفًا. بَيد أن كلَّ ذلك كان لا يزال بعيدًا.

لم يكن حتى يعرف أين كان فيكتور الآن؟ ورغم ذلك، كان يُحسُّ إحساسًا غامضًا أن أخاه قد توجَّه إلى الجنوب، إلى حقول الشاي، كيما يدبر لثورة بين العمال الزراعيين. وماذا

لو كان فيكتور بين أفراد العصابات الآخرين الذين كان بيرالتا يطاردهم بين المستنقعات؟ ولقد خطرت تلك الفكرة الرهيبة على باله مرات عديدة، ولكنه حاول إبعادها عن ذهنه في هلع. كلَّا، يجب على أخيه أن يعيش، يجب أن يعيش ... إنه بحاجة إليه.

واستمر ضغط النوم القاهر يحكُّ جلده وعظامه، ويلفُّ نفسه حواليه كأفعى دائبة شريرة تخنقه في بطء. لسوف ينام؛ لكن، هناك السجين، وقد يهرب وعندها يصبح الملازم بيرالتا صارمًا مع الحارس المهمل. لقد أظهر مدى صرامته قبل ذلك في مناسبات عديدة.

وتحرَّك سالديفار بثقل في دثاره المطاطي الثقيل، وتلمَّس ما حوله في الظلمة باحثًا عن قطعة من السلك أو الحبال كيما يقيد السجين. ربما كان جثة هامدة، ولكنه قد يكون يتظاهر بالموت حتى يتمكن من الهرب في لحظة إهمال من حارسه. وطافت يداه في كل ركن من أركان الكوخ المحترق دون جدوى. وأخيرًا، وجد قطعة من عروق الكرم، بالغة الجفاف والقِصر. لم تكن تصلح لشيء. وعندئذٍ، في ومضة صفاء يائسة، تذكَّر هوجو سالديفار أنه يوجد أمام الكوخ حفرة عميقة، ربما تكون قد حفرت من أجل إقامة دعامة للسقف الذي لن يُبنَى أبدًا بعد الآن. وتلك الحفرة تتسع لرجل يقف فيها قائمًا إلى صدره. وكان يحيط بالحفرة كَومة من التراب الذي كان قد أفرغ منها. وأسند هوجو سالديفار بندقية «الماوزر» على بقايا جدار. وبدأ يجرُّ السجين إلى الحفرة. واستخدم أقصى قواه كيما يضع الجسد في الحفرة المظلمة، التي كانت كماسورة صُنعت للغرض الذي يريده منها. ووقف السجين قائمًا في الحفرة، لا يبين منه سوى رأسه وكتفيه. وأهال سالديفار التراب بيديه وحذائه حتى ملأ الفراغات التي كانت تحيط بجسد الرجل. ولم يُبدِ السجين أي مقاومة في أي لحظة. فالظاهر أنه قد قبِل ما فعله الحارس بلامبالاة كاملة. ولم يكَد سالديفار يلاحظ ذلك، فقد أنعشه الجهد الذي بذله في ذلك العمل لفترةٍ ما، بل تولد له من الطاقة ما جعله يتناول بندقيته ويسوي التراب بكعبها. وبعد ذلك، سقط كالحجَر فوق المقعد، بينما تزايدت طلقات البنادق في سهل المستنقعات.

وعاد الملازم بيرالتا مع رجاله حوالي منتصف الظهيرة. كانت المَهمة قد أُنجزَت. وأضاءت ابتسامة قاسية وجهه، الذي كان مُسودًا كوَجه الطيور الكواسر. وكان الجنود يسوقون أمامهم سجينَين أو ثلاثة دامِيي الجراح. كانوا يدفعونهم إلى الأمام باللعنات والإهانات القبيحة وكعوب البنادق. كان معظم الأسرى من عمال المزارع في صعيد منطقة «بارانا». كانت أجسامهم فحسب هي التي انهزمت. وكان يطفو على عيونهم شعاعٌ من السعادة التي لا يقبلها المنطق. بَيدَ أن ذلك الشعاع كان يطوف بالفعل فيما وراء الموت. كانوا فحسب يتمهلون جسمانيًّا فترة أخرى على هذه الأرض الجامدة العطشى.

وصاح بيرالتا بصوت عالٍ: «سالديفار!».

وومضت عيون السجناء ببقية من الدهشة المؤلمة.

وأعاد بيرالتا النداء في غضب: «سالديفار!».

ولم يجِبه أحد. ثم لاحظ بيرالتا رأس السجين بارزة من الحفرة. كانت تبدو كتمثال نصفيٍّ منحوت من الخشب الذي غطَّته الطحالب، تمثال نصفي مهجور منذ فترة طويلة. وكان ثمة صفٌّ من النمل يصعد على الوجه المهجور إلى الجبهة، فبدا كالشريط الأسود الذي لا تسقط عليه الشمس. وعلى جبهة التمثال النصفي، كان هناك ندبة عميقة كالهلال الشاحب.

وكانت عيون السجناء مثبَّتة على ذلك النحت الغريب. ومن وراء القناع الأخضر الذي يزحف عليه النمل، تعرَّفوا على زميلهم الذي وقع في الأسر في الليلة السابقة. وقد اعتقدوا أن صيحة بيرالتا التي ينادي بها الرجل الميت باسمه العائلي الحقيقي، ما هي إلا صيحة انتصار من الضابط.

وكانت بندقية هوجو سالديفار ملقاة على أرضية الكوخ؛ الدليل الوحيد على هروبه. وكان بيرالتا يقلِّب في رأسه الضيق أنواع العقاب التي سينزلها بالهارب من الخدمة العسكرية. لم يكُن ليخمِّن أن هوجو سالديفار قد فرَّ في الفجر كالمجنون يطارده وجه أخيه النحاسي الدامي، الذي دفنه هو ذاته في الحفرة كأنه جذع شجرة.

وتسلَّق النمل وجه فيكتور سالديفار، رجل العصابات الميت، صعودًا وهبوطًا.

وفي اليوم التالي، عثر رجال الملازم بيرالتا على جثة هوجو سالديفار طافية على مياه المستنقع الموحلة. كان شعره قد ابيضَّ تمامًا، وغابت أي لمحة من لمحات التعبير الإنساني من على وجهه.

ليلة الكروان

تأليف: جابرييل غرسيه ماركيز
(كولومبيا)

جابرييل غرسيه ماركيز (١٩٢٨م– ؟)

رغم أن ماركيز قد ولد في مدينة أراكاتاكا في كولومبيا، فقد أمضى معظم حياته خارج وطنه، في المكسيك وأوروبا. فبعد أن التحق بجامعة بوجوتا، عمل بالصحافة والتحرير، وسافر بهذه الصفة إلى خارج بلاده. وقد أصدر روايته الأولى عام ١٩٦٨م بعنوان «لا أحد يراسل الكولونيل»، ثم أتبعها برائعته «مائة سنة من العزلة» بعد ذلك بسنتَين. ويظهر في كتاباته الأثر العميق الذي خلفه فيه الكاتب الأمريكي وليام فوكنر. ويَعتبر النقاد أن ماركيز هو مؤسس أسلوب الواقعية السحرية في الرواية، وإن كان آخرون يرجعونها إلى كافكا، بل وقصص ألف ليلة وليلة. وقد حصل ماركيز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢م، وجميع كتبه مترجمة إلى اللغة العربية.

* * *

كنا نحن الثلاثة جلوسًا حول المنضدة، حين دفع أحدهم قطعة نقد معدنية في فتحة الآلة الموسيقية، فعادت تُذيع الأغنية التي ترددت طوال الليل. ولم تُتَح لنا نحن الآخرين فرصة التفكير في الأمر، فقد حدث ذلك قبل أن نستطيع تذكر المكان الذي التقينا فيه، وقبل أن نستعيد مقدرتنا على التصرف. ومدَّ أحدنا يده من فوق منضدة الحانة، تتحسس ما أمامها

(ونحن لم نرَ يده، وإنما سمعناها)؛ فاصطدمت بكأس فتوقفت في مكانها، وبقيت اليدان ساكنَتَين فوق السطح الخشبي الصلد. وعند ذلك، بحث ثلاثتنا الواحد منا عن الآخر في الظلمة وتلاقينا هناك، عند مفاصل أصابعنا الثلاثين التي تكومت فوق المنضدة. وقال أحدهم: «هيا بنا.» ونهضنا، كما لو لم يحدث شيء، ولم يُتَح لنا وقت بعد كيما تتبلبل خواطرنا.

وعندما مررنا بالردهة، تناهت ضجة الموسيقى القريبة إلى أسماعنا، تدور في مواجهتنا، وشممنا رائحة النسوة الحزانى، جالسات ينتظرن. وأحسسنا بالفراغ المتطاول للردهة التي تنبسط أمامنا بينما نحن نسير في اتجاه الباب، قبل أن تهبَّ لملاقاتنا تلك الرائحة النفاذة للمرأة التي تجلس إلى جوار الباب. قلنا: «سوف نخرج.» ولم تُجِب المرأة بشيء. وأحسسنا بصرير المقعد الهزاز وهو يتحرك عند نهوضها، وشعرنا بخطواتها على الخشب المتفكك ثم عودتها، عندما عادت مفصَّلات الباب إلى الصرير ثم انغلق وراء ظهورنا.

وارتددنا على أعقابنا، فهناك إلى الخلف كان الهواء القارس الحادُّ للفجر الخفي، وصوت يقول: «ابتعدوا عن هذا الموضع، فلسوف أمرُّ ومعي هذا.» وعدنا إلى الوراء، وعاد الصوت يقول: «ما زلتم أمام الباب.» وبعد أن تحرَّكنا في جميع الاتجاهات ووجدنا الصوت يصيح بنا في كل موضع؛ عند ذلك فقط قلنا إننا لا نستطيع أن نخرج من هنا، فقد انتزع الكروان عيوننا. وبعد هذا سمعنا أصوات أبواب كثيرة تُفتح، وانفلت واحد منا من أيدي الآخرَين وسمعناه ينسحب في الظلمة، مترددًا، متعثرًا في الحاجيات التي تحوطنا. وتحدَّث من مكانٍ ما في الظلام قائلًا: «لا بد أننا نقترب فعلًا، فهنا رائحة صناديق أمتعة متراكمة.» ثم شعرنا مرة أخرى بملمس يدَيه، واستندنا على الجدار حين مرَّ ثانية ولكن في الاتجاه المخالف، وقال أحدنا: «يمكن أن تكون توابيت.» وقال ذلك الذي انسحب ناحية الركن ووقف الآن يتنفس إلى جوارنا: «إنها صناديق أمتعة، لقد تعلَّمت منذ الصغر أن أميز رائحة الملابس المخزونة.» وعندئذٍ تحركنا إلى ذلك الموضع. كانت الأرض هناك طرية ملساء، ربما من كثرة الأقدام التي وطئتها. ومدَّ أحدنا يده، وشعرنا بملمس جلد إنسان رحيب، ولكن لم نَعُد نشعر بالجدار الذي يقوم على الجانب الآخر. قلنا: «هذا جسد امرأة.» وقال ذلك الذي تحدث عن التوابيت: «أعتقد أنها نائمة.» واهتز الجسد تحت ملمس أيدينا، وارتعش، وشعرنا به ينفلِت، ليس من جرَّاء ابتعاده عن نطاق أصابعنا؛ لكن كأنما قد زال كليةً عن الوجود. ورغم ذلك، بعد لحظة ران علينا السكون والجمود، وتساند الواحد منا على الآخر، سمعنا صوتها يقول: «من يسعى هناك؟» وأجبنا دون أن نتحرك: «نحن.» وسمعنا حركة في الفراش؛ صريرًا، وصوت قدمَين تبحثان عن الخفِّ في الظلمة. وعند ذاك تخيَّلنا المرأة

وقد جلست تنظر إلينا دون أن تكون قد استيقظَت بعدُ تمامًا. قالت: «ماذا تفعلون هنا؟» وقلنا: «لا نعرف. لقد انتزع الكروان عيوننا.» وقال صوت المرأة إنها سمعت شيئًا من هذا القبيل، وإن الصحف قد تحدثَت عن ثلاثة رجال كانوا يشربون الجعة في فناء حانة كان بها كروان، حين انطلق أحد هؤلاء الرجال يقلِّد الكروان في غنائه. قالت: «ولكن شاء سوء الطالع أن تدق الساعة متأخرة عن موعدها، وعند ذاك قفز الكروان إلى المنضدة وانتزع عيون الرجال الثلاثة.» قالت إن هذا ما ذكرته الصحف، ولكن أحدًا لم يصدِّق ذلك. قلنا نحن: «لو ذهب الناس إلى الحانة فسيَرون الكروان.» وقالت المرأة: «لقد ذهبوا. لقد امتلأ الفناء بالناس في اليوم التالي، ولكن صاحبة الحانة كانت قد نقلت الكروان إلى مكان آخر.»

وحين استدرنا، سكتت المرأة عن الكلام، وقام الجدار هناك مرة أخرى. ما إن التفتنا حتى وجدنا الجدار يقوم من حولنا، يحيط بنا من كل ناحية. وعاد واحد منا إلى الانفلات من أيدينا، وسمعناه يتجوَّل مرة أخرى يتشمم الأرض قائلًا: «لا أدري الآن أين هي صناديق الأمتعة. أعتقد أننا نسير في موضع آخر.» وقلنا: «تعالَ هنا؛ إذ يوجد شخص غريب إلى جوارنا.» ولفحتنا أنفاسه الحارة في وجوهنا مرة أخرى. قلنا له: «امدد يدَك إلى ذلك الموضع، يوجد هناك شخصٌ ما يعرفنا.» ولا بدَّ أنه مدَّ يدَه، ولا بدَّ أنه قد تحرك إلى المكان الذي قلنا له عنه؛ لأنه عاد بعد لحظة ليقول لنا: «أعتقد أنه صبي.» وقلنا له: «حسن، اسأله إن كان يعرفنا.» وسأله، ووصل إلى أسماعنا صوت الصبي بسيطًا جامدًا وهو يقول: «أجل، أعرفكم، أنتم الرجال الثلاثة الذين انتزع الكروان عيونهم.» وارتفع صوت صرير المفصلات، ثم الصوت الناضج وقد اقترب عن ذي قبل. قالت: «اصطحبهم إلى منازلهم.» وقال الصبي: «لا أعرف أين يقيمون.» وقالت المرأة: «لا تكن خبيثًا، فالدنيا كلها تعرف أين يقيمون منذ أن انتزع الكروان عيونهم.» ثم واصلت حديثها بنغمة أخرى، كأنما توجِّه إلينا الحديث: «الحقيقة أنه ما من أحد يريد أن يصدِّق ما حدث، ويقولون إنه ادعاء كاذب روَّجته الصحف لكي تزيد مبيعاتها؛ فليس هناك من أحد رأى الكروان.» وقال الصبي: «ولكن أحدًا لن يصدِّقني لو أنني اصطحبتهم معي في الطريق.» أما نحن فلم نتحرك، بل وقفنا ساكنِين مستندين إلى الجدار نستمع إليها. وقالت المرأة: «لو شاء هذا أن يصحَبكم فسيكون الأمر مختلفًا؛ فعلى كل حال، لن يقيم أحد وزنًا لما يقوله صبي صغير.» وتدخَّل الصوت الصبياني قائلًا: «لو أنني خرجت إلى الطريق معهم وقلت إنهم الرجال الذين انتزع الكروان عيونهم فلسوف يقذفني الأولاد بالحجارة، فالجميع في كل مكان يقولون إن هذا لا يمكن أن يحدث.» وساد الصمت لحظة، انغلق الباب بعدها وعاد الصبي يقول: «فوق ذلك؛

فإنني مشغول الآن في قراءة قصة تيري والقرصان.» وأسرَّ إلينا واحد منا: «لسوف أقنعه.» ثم ابتعد إلى حيث كان صوت الصبي وقال له: «إنني أحب هذا. قل لنا على الأقل ماذا حدث لتيري في حلقة هذا الأسبوع.» وجال في خاطرنا أنه يحاول أن يحوز ثقة الصبي، ولكن هذا الأخير قال: «إني لا أهتم بهذا، فكل ما يجذبني إليها هو الألوان ليس إلا.» قلنا: «لقد كان تيري واقعًا في ورطة.» وقال الصبي: «كان ذلك في حلقة يوم الجمعة، واليوم الأحد، وأنا لا يهمني في الأمر كله سوى الألوان.» قال ذلك في صوت بارد، هادئ، غير مكترث. وحين عاد صاحبنا قلنا: «لقد مضى علينا ثلاثة أيام ونحن في هذا التيه، لم نسترِح فيها ولا مرة واحدة.» وقال واحد منا: «حسنًا، لسوف نستريح برهة، على ألا يترك أيٌّ منا يد الآخر.»

وجلسنا، وبدأت شمس خفية دفيئة تظلل أكتافنا بحرارتها. غير أن شيئًا لم ينجح في إثارة اهتمامنا، ولا حتى وجود تلك الشمس. كنا نستشعرها هناك في كل موضع بعد أن فقدنا الإحساس بالبعد وبالزمن وبالاتجاه. وعبرت بنا أصوات عديدة. قلنا: «لقد انتزع الكروان عيوننا.» وقال صوت من تلك الأصوات: «لقد صدَّق هؤلاء ما ذكرته الصحف.» وانقطعت الأصوات، وبقينا جلوسًا، متلاصقي الأكتاف، ننتظر أن يمرَّ في وسط تلك الأصوات التي تعبر بنا، وفي تلك الصور التي تتراءى لنا، صوت أو رائحة نعرفها. وبقيت الشمس تصبُّ حرارتها فوق رءوسنا. وعندئذٍ قال واحد منا: «لنذهب مرة أخرى ناحية الجدار.» وقال الآخران وقد بقيا ساكنَين، ورأساهما مرفوعان نحو الضياء الخفي: «ليس الآن، بل لننتظر إلى أن تحرق الشمس وجوهنا.»

النزيل

تأليف: إيزابيل ألليندي
(شيلي)

إيزابيل ألليندي (١٩٤٢م– ؟)

وُلدت إيزابيل حين كان والدها يعمل في سفارة بلاده شيلي في ليما عاصمة بيرو، وهو ابن عم سلفادور ألليندي أول رئيس اشتراكي لشيلي. وقد تزوجت أم إيزابيل دبلوماسيًّا آخر هو «العم رامون» الذي عمل في بوليفيا ولبنان. وقد عاشت إيزابيل عدة سنوات معهما في بيروت قبل أن تعود إلى شيلي لتواصل دراستها هناك، ولتعمل بعد ذلك في مكتب للأمم المتحدة في سنتياجو عاصمة شيلي. وقد بدأت نشاطها في الكتابة بالعمل في الصحافة ونشر المقالات وقصص الأطفال من عام ١٩٦٧ إلى ١٩٧٤م. وبعد سنتَين من الانقلاب الذي أطاح بالرئيس ألليندي في أواخر عام ١٩٧٣م، رحلت إيزابيل مع أسرتها إلى فنزويلا حيث ما زالت تعمل هناك بالصحافة والتدريس. وقد بدأت نشاطها الروائي عام ١٩٨١م حين وصلتها الأنباء بمرض جدها، فشرعت تكتب له خطابًا طويلًا، تحوَّل بعد ذلك إلى أول رواياتها «منزل الأرواح»، التي نالت شهرة كبيرة فور نشرها، ثم تحوَّل إلى فيلم سينمائي مثَّلت فيه «ميريل ستريب» دور البطولة. وأصدرت بعد ذلك روايتها «عن الحب والظلال» ومجموعتها القصصية «إيفالونا» التي تضمنت قصة النزيل

التي نقدِّمها هنا. وتعيش إيزابيل أlليندي في كاليفورنيا بالولايات المتحدة منذ عام ١٩٨٨م. وبعد عودة الديمقراطية إلى شيلي عام ١٩٩٠م، زارت الكاتبة وطنها لأول مرة بعد خمسة عشر عامًا، لتتلقَّى جائزة جابرييلا ميسترال الأدبية. وقد تُرجِمت جميع روايات إيزابيل أlليندي إلى اللغة العربية.

* * *

دخلت المدرِّسة إينيس متجر جوهرة الشرق، وكان خاليًا من الزبائن في تلك الساعة، ومشت إلى النضد حيث كان رياض حلبي يطوي لفة من القماش الزاهي الألوان، وأعلنت إليه أنها قد قطعت لتوِّها رأس أحد نزلاء فندقها. وتناول التاجر منديله الأبيض وغطَّى به فمه.

– ماذا تقولين يا إينيس؟

– ما سمعته مني تمامًا أيها العربي.

– وهل مات؟

– طبعًا.

– وماذا ستفعلين؟

فأجابَته وهي تعقد خصلة من شعرها إلى الوراء: هذا ما جئت أسألكَ عنه.

فقال رياض حلبي وهو يتنهد: أظن أنه يحسُن بي أن أغلق المحل.

كانا يعرفان بعضهما منذ زمن طويل لدرجة أن أيًّا منهما لا يستطيع أن يتذكَّر تمامًا عدد سنوات صداقتهما؛ رغم أن كليهما لا يزال يذكر كل شاردة وواردة منذ اليوم الذي تعارفا فيه. وقتها كان حلبي واحدًا من هؤلاء الباعة الذين يجُولون في الطرقات الجانبية يعرضون بضائعهم؛ واحدًا من الحجيج التِّجاريين ممن لا يملكون بوصلة توجههم أو مسارًا ثابتًا، مهاجرًا عربيًّا بجواز سفر تركي مزور، وحيدًا، متعبًا، ذا شفة مشقوقة كشَفة الأرنب وما يتبع ذلك من حرص على عدم تعريضها للشمس. وكانت هي لا تزال امرأة في مقتبل العمر، ذات جسد مستدير وكتفَين ناهضتَين، المدرِّسة الوحيدة في البلدة، وأم صبي في الثانية عشرة من عمره، جاء نتيجة علاقة حب عابرة. وكان الصبي هو مدار حياة المدرِّسة؛ فهي تُعنَى به في تكريسٍ لا حد له، بَيد أنها كانت تحاول إخفاء ميولها التي تدعوها إلى محاباته؛ وذلك بأن تطبق عليه نفس قواعد النظام التي تطبقها على التلاميذ الآخرين في المدرسة. لم تكُن تريد أحدًا أن يقول إنها قد أنشأت ابنها تنشئة سيئة، ولكنها كانت تأمل في الوقت ذاته أن تقمع فيه ميراث أبيه الذي ينزع إلى التقلب، وتبذر فيه الذهن

الصافي والقلب الكريم. وفي نفس المساء الذي دخل فيه رياض حلبي بلدة «أجواسانتا» من أحد جوانبها، كانت مجموعة من الصبية قد حملت من جانب البلدة الآخر جسد ابن إينيس المدرِّسة على نقالة. كان قد دلَف إلى ضَيعة أحد الأشخاص ليلتقط منها ثمرة مانجو ساقطة، فأطلق عليه صاحب الضيعة، وهو غريب لا يعرفه أحد حق المعرفة، رشةً من بندقيته ليخيفه؛ بَيدَ أنها أحدثت ثقبًا أسود في وسط جبهته أسرعت حياته بالهرب من خلاله. وفي تلك اللحظة، اكتشف البائع العربي موهبته في القيادة، ووجد نفسه دون أن يدري كيف، في قلب الأحداث، يعزِّي الأم، وينظِّم الجنازة كأنما هو أحد أفراد العائلة، ويهدِّئ من ثورة الناس ليمنعهم من تمزيق المعتدي إربًا. وفي تلك الأثناء، كان القاتل قد أدرك أن حياته لن تكون في مأمن لو أنه بقِي في البلدة. فهرب منها وهو لا ينتوي العودة. وكان رياض حلبي هو الذي قاد المسيرة في اليوم التالي من المقابر إلى المكان الذي سقط فيه الصبي قتيلًا. كان كل سكان أجواسانتا قد قضوا ذلك اليوم يجمعون ثمار المانجو ثم يقذفونها إلى نوافذ البيت إلى أن امتلأ البيت بها من أرضيته إلى سقفه.

وبعد عدة أسابيع، خمَّرت الشمس الثمار، فانفجرت عن عصير لزج لطَّخ الجدران بدماء صفراء وصديد حلو، مما حوَّل المنزل إلى حفرية من حفريات ما قبل التاريخ، كأنما هو حيوان هائل في عملية تحجُّر، يزيد من عذابه همَّة اليرقات اللامتناهية والناموس الذي يعيث فيه تحللًا.

وكان موت الصبي، والدور الذي لعبه رياض حلبي في تلك الأيام، والترحاب الذي لاقاه في أجواسانتا، كل هذا عمِل على تحديد مسار حياته. ونسِي حياة آبائه في التجوال واستقرَّ في البلدة؛ حيث افتتح متجرًا وسماه جوهرة الشرق. وتزوج، ثم ترمل، وتزوج ثانية، وواصل تجارته، في حين نمَت سمعته بوصفه رجلًا أمينًا عادلًا. وعمِلت إينيس بدورها في تعليم عدة أجيال من الأطفال بنفس الودِّ الذي كانت تمنحه ابنها، حتى انقضت طاقاتها، فتنحَّت عن الطريق مُفسحة المجال لمدرسين وصلوا من المدينة بمناهج جديدة، وتقاعدت. وبعد أن تركت عملها في المدرَسة، شعرت كأنما هي قد شاخت فجأة، كأنما الزمن يتسارع بها، ومرت الأيام بسرعة لم تستطع معها أن تتذكر كيف تنقضي الساعات.

قالت معلِّقة: إنني أمضي كأنما أنا في ذهول، أيها العربي. إنني أموت ولا أكاد أُدرك ذلك.

فأجاب رياض حلبي: إنكِ في أتمِّ صحة وعافية يا إينيس. المشكلة هي أنك تشعرين بالملل. يجب ألا تبقي بلا عمل.

واقترح عليها أن تضيف بعض الحجرات إلى منزلها وتجعل منه فندقًا صغيرًا.

– ليس في البلدة فندق.

فردت: ذلك أنه ما من سياح يفِدون إلينا.

– إن سريرًا نظيفًا وإفطارًا ساخنًا نعمة يرحب بها أي مسافر.

وهكذا كان الأمر في البدء لسائقي شاحنات البترول، الذين كانوا يقضون الليل في فندقها حين يملأ التعب ورتابة الطريق رءوسهم بالهلوسة.

وكانت المدرِّسة إينيس أكثر النسوة الكبيرات احترامًا في أجواسانتا؛ فقد علَّمت أجيالًا عديدة من أولاد البلدة؛ مما منحها حق التدخل في جميع شئون حياتهم، وشدِّ آذانهم إذا رأت ذلك ضروريًّا. وكانت الفتيات يعرضن عليها أصدقاءهن كيما يحصلن على موافقتها، والزوجات والأزواج يأتون إليها لحل مشاكلهم الزوجية. كانت إينيس مستشارة وحَكَمًا وقاضيًا في جميع مشاكل البلدة. وكانت سلطتها في الواقع تفوق سلطة القس أو الطبيب أو الشرطي. ولم يحاول أحد أن يمنعها من مزاولة تلك السلطة؛ ففي إحدى المرات، اقتحمت إينيس قسم الشرطة، وتخطَّت الضابط دون كلمة، وخطفت المفاتيح المعلقة على الحائط بمسمار، وأخرجت من الحجز أحد تلاميذها السابقين، ألقِي القبض عليه بعد ليلة شراب صاخبة. وحاول الضابط أن يقف في طريقها، ولكنها أزاحته وأخرجت الصبي أمامها ممسكة به من ياقة قميصه. وبعد أن خرجت به إلى الطريق، سددت إليه بعض اللكمات وأكدت له أنه إذا تكرر منه ذلك السلوك فسوف تضربه علانية علقة على مؤخرته لن ينساها طوال حياته!

وفي ذلك اليوم الذي حضرت فيه إينيس لتخبر رياض حلبي أنها قتلت أحد زبائنها، لم يخامره الشك لحظة بأنها جادة فيما تقول؛ لأنه كان يعرفها جيدًا، وتناول ذراعها وسار معها يقطعان صفَّي المنازل التي تفصل جوهرة الشرق عن منزلها. كان منزل إينيس أحد أكبر المباني في البلدة، من الآجر والخشب، ذا شرفة عريضة تُسدَل عليها الستائر خلال فترات الظهيرة التي تشتد فيها الحرارة، وبه مراوِح في سقف كل حجرة. وكان البيت في تلك الساعة يبدو خاليًا؛ فلم يكن هناك سوى نزيل واحد قد جلس في البهو يحتسي البيرة وقد تصلَّب أمام جهاز التليفزيون.

وهمس التاجر العربي: أين هو؟

فردت إينيس دون أن تهتم حتى بخفض صوتها: في إحدى الحجرات الخلفية.

وقادته إلى صفِّ الحجرات التي أعدتها للإيجار، يصل فيما بينها جميعًا ممرٌّ مسقوف تتسلق على أعمدته الزهور الأرجوانية وتتدلَّى من روافده أصص النباتات الخضراء، وإلى

جوارها فناء مزروع بأشجار المشملة والموز. وفتحت إينيس الباب الأخير، ودخل رياض حلبي حجرة تكتنفها الظلال العميقة. كانت مصاريع النافذة مغلقة، ومضَت برهة قبل أن يرى على السرير جثة رجل عجوز ذي مظهر مسالم، غريب هرِم يسبح في بركة من الدم، وسراويله ملوثة بالبراز، ورأسه معلق بخيط من اللحم الرمادي، يغطيه تعبير مريع من الألم، كأنه يعتذر عن كل هذا الإزعاج وكل هذه الدماء، وعن أنه قد سمح لنفسه أن يموت مقتولًا مسببًا كل هذه المضايقة غير العادية. وجلس رياض حلبي على المقعد الوحيد في الغرفة، عيناه مثبتتان على الأرض، يحاول أن يسيطر على ثورة معدته. وبقيَت إينيس واقفة، ذراعاها منعقدتان على صدرها، تفكر في أن الأمر سيحتاج منها يومَين كي تغسل البقع ويومَين آخرين على الأقل كي تخلص الحجرة من رائحة البراز والخوف.

وسأل رياض حلبي أخيرًا وهو يمسح العرق عن جبهته: كيف فعلتِ هذا؟

– ببلطة ثمار جوز الهند، جئت من خلفه وقطعت رأسه بضربة واحدة. لم يعرف قط ماذا ضربه، ذلك المسكين.

– ولماذا؟

– كان يجب عليَّ أن أفعل هذا. إنه القدر المحتوم. إن هذا العجوز حظه سيئ للغاية. لم يكن ينوي أبدًا أن يتوقف في أجواسانتا، لقد كان يسوق عربته عبر البلدة حين حطم زجاج نافذة العربة الأمامية. وحضر إلى هنا لقضاء سويعات إلى أن يتمكن الإيطالي ذاك في الجاراج من العثور على بديل للنافذة. لقد تغير كثيرًا — فقد كبرنا جميعًا في السن على ما أعتقد — بَيدَ أنني تعرَّفت عليه على الفور. كنت أنتظر طوال هذه السنوات، وكنت أعلم أنه سيأتي إن عاجلًا أو آجلًا. إنه الرجل صاحب المانجو!

فغمغم رياض حلبي: فليشملنا الله برحمته.

– هل تظنُّ أن علينا أن نتصل بضابط الشرطة؟

– كلا، البتة. لماذا تقولين هذا؟

– إن الحق معي. لقد قتل ابني.

– إن الضابط لن يفهم هذا يا إينيس.

– العين بالعين والسن بالسن أيها العربي. أليس هذا ما يذكره دينك؟

– ولكن القانون لا يعمل على هذا المنوال يا إينيس.

– حسنًا إذَن، يمكننا أن نعدِّل من الأمور ونقول إنه قد انتحر.

– لا تلمسيه. كم نزيلًا لديك الآن في الفندق؟

– سائق الشاحنة ذاك فحسب. وسوف يواصل سفره حين تنكسر حدَّة الحرارة؛ فعليه أن يذهب إلى العاصمة.

– حسنًا. لا تقبلي أي نزيل آخر الآن. أغلقي باب هذه الحجرة بالمتراس وانتظريني. سأعود في الليل.

– ماذا ستفعل؟

– سوف أعالج هذا الأمر بطريقتي.

كان رياض حلبي في الخامسة والستين من عمره، ولكنه كان قد احتفظ بقوة الشباب وبنفس الروح التي وضعته ذات يوم على رأس الجماعة يوم وصل إلى أجواساتنا. وغادر منزل المدرِّسة ومشى مسرعًا للقيام بأول زيارة من سلسلة زيارات كان عليه أن يقوم بها ذلك الأصيل. وبعدها بقليل، بدأت همهمة متواصلة تسري عبر البلدة؛ فقد استيقظ سكان أجواسانتا من خمول السنين وقد استثارتهم أنباء «عصية» على التصديق، يتناقلها بيت عن بيت، طنين مستمر، أخبار تطاولت إلى أن صارت صياحًا، ثرثرة أضفت عليها ضرورةُ أن تكون على مستوى الهمس مركزًا خاصًّا.

وقبل أن تغيب الشمس، كان بوسع المرء أن يُحسَّ في الهواء هذا الاستعلاء القلق الذي سيصبح لمدة سنين صفة من صفات البلدة، صفة لا يفهمها الغرباء الذين يمرون بها، ممن لا يمكنهم العثور على أي شيء غير عادي في هذه البلدة التي لها مظهر بِركة المياه الراكدة، مثلها مثل كثيرات متناثرة على حافة الغابات. وبدأ الرجال يتوافدون إلى الحانة مع بواكير المساء، وحملت النساء كراسيهن خارجًا على الأرصفة وجلسن يستمتعن بالهواء المنعش، وتجمَّع الشبان في جمهرة في الميدان، كأنما اليوم يوم أحد. وقام الضابط وثلة الجنود بجولاتهم بلامبالاة، ثم قبلوا دعوة الفتيات في منزل البِغاء إلى حضور حفل عيد ميلاد واحدة منهن، كما ادَّعين لهم. وما إن انسدل الليل حتى كان الطريق يغصُّ بالناس على نحو يفوق ما كان يتجمَّع فيه في يوم عيد جميع القديسين. وكانوا كلهم مشغولين تمامًا فيما يقومون به من أنشطة حتى بدَوا كأنما هم يشاركون في جزء من فيلم سينمائي؛ كان البعض يلعب الدومينو، وآخرون يحتسون شراب الروم ويدخنون على نواصي الطرقات، وثمة اثنان يتمشيان وقد تشابكت أيديهما، وأمهات يجرين خلف أطفالهن، وجَدات يتطلعن صائحات من وراء أبواب مفتوحة. وأشعل القس مصابيح الأبرشية ودق الأجراس معلنًا عن إقامة تاسوع للشهيد سان إيسيدرو؛ ولكن لم يكن هناك من هو على استعداد وقتها لحضور مثل هذه الصلاة.

وفي التاسعة والنصف، عُقد اجتماع في منزل المدرسة إينيس: العربي، وطبيب البلدة، وأربعة شبان كانت إينيس قد تولَّت تعليمهم من المرحلة الأولى، وهم الآن محاربون عادوا من خدمتهم العسكرية. وقادهم رياض حلبي إلى الغرفة الخلفية حيث وجدوا الجثة وقد غطتها الحشرات؛ فقد تُركت النافذة مفتوحة، وكانت الساعة ساعة الناموس. وحشروا الضحية في جِوال من القماش، وحملوه إلى الطريق، وألقَوا به دون احتفال في خلفية شاحنة رياض حلبي. وقادوا العربة عبر البلدة، في الطريق الرئيسي ذاته، ملوحين بأيديهم، كعادتهم، لكل من يرَوه. وقد رد بعض الجيران تحيتهم بحماس أشد من المعتاد، بينما تظاهر آخرون بأنهم لم يرَوهم، وهم يضحكون خفية كأنما هم أطفال فاجأهم أحدهم متلبسين بعمل غير مشروع. وتحت أشعة القمر المنيرة، توجَّه الرجال إلى البقعة التي انحنى فيها لآخر مرة منذ سنوات كثيرة ابن المدرِّسة كيما يلتقط ثمرة مانجو. وتبدَّت الضيعة جامدة وسط أعشاب النسيان الطفيلية وقد أعمل فيها الزمن والذكريات الحزينة ناب الاضمحلال؛ ربوة متشابكة نمَت فيها ثمار المانجو على نحو بري؛ فتساقطت حباتها من الأشجار واتَّخذت جذورًا في الأرض فولدت أشجارًا جديدة ولدت بدورها أشجارًا، إلى أن نشأت غابة لا تخترقها الحجب ابتلعت الأسوار والطرق بل وحتى أطلال المنزل الذي لم يتبقَّ منه سوى أثر ضئيل من رائحة المربى. وأشعل الرجال مصابيحهم الغازية ثم انقضُّوا على البقعة الكثيفة يشقون طريقًا لهم بالبلط. وحين شعروا أنهم قد أنجزوا ما فيه الكفاية، أشار أحدهم إلى مكانٍ ما، وهناك، على سفح إحدى الأشجار الضخمة المحملة بالثمار، حفروا حفرة عميقة أودعوا فيها الجوال القماشي. وقبل أن يُهيلوا التراب على الحفرة، غمغم رياض حلبي بصلاة إسلامية؛ إذ كانت هي الصلاة الوحيدة التي يعرفها. وحين عاد الرجال إلى البلدة، رأوا أنه ما من أحد قد أوى إلى فراشه. كانت الأنوار تسطع في كل النوافذ، والناس تروح وتجيء في الطرقات.

وفي تلك الأثناء، كانت المدرِّسة إينيس قد حكَّت بالفرشاة جدران الغرفة الخلفية وأثاثها؛ وحرقت مرتبة السرير وملاءاته، وجددت هواء المنزل، ثم جلست في انتظار أصدقائها بعد أن أعدت لهم عشاءً طيبًا وجرة مليئة بالروم وعصير الأناناس. وأكل الجميع الطعام بصحبة حديث طَلي عن آخر مصارعات الديكة، وهي مصارعة وحشية في رأي المدرِّسة وإن ادَّعى الرجال أنها أقل وحشية من مصارعة الثيران التي فقد فيها مصارع كولومبي كبده. وكان رياض حلبي آخر من غادروا المنزل. وفي هذه الليلة، لأول مرة في حياته، شعر بالشيخوخة. وعند الباب، أمسكت المدرِّسة إينيس بيديه وتركتهما هنيهة بين يديها. قالت: شكرًا أيها العربي.

– لماذا جئت لي أنا يا إينيس؟

– لأنك الشخص الذي أكنُّ له أكثر الحب في هذه الدنيا، ولأنك كان يجب أن تكون أبا ابني.

وفي اليوم التالي، عاد سكان أجواسانتا إلى أعمالهم اليومية وقد أشاع فيهم التواطؤ الرائع حماسًا، عن سرٍّ يحتفظ به جيران طيبون في داخليتهم، ويكنُّونه في صدورهم بكل حماس، ويتناقلونه أبًا عن جد بوصفه أسطورة من أساطير العدالة، إلى أن حررتنا وفاة المدرِّسة إينيس؛ حيث أستطيع الآن أن أحكي القصة.

هنداوي